

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

إبراهيم نصر الله

سيرة عين

الملهاة الفلسطينية

رواية

سيرَةُ عَيْن

v

سيرة عين: رواية

الطبعة العربية الأولى: كانون الثاني/ يناير 2019م - 1440 هـ

ردمك 978-614-02-3660-8

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

صورة الغلاف: صورة شخصية لكريمة عبود من تصوير: سي ساويدس.

تصميم الغلاف: **محمد نصر الله**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف (9611+) 785107

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف (9611+) 786233

IBRAHIM NASRALLAH
AN AUTOBIOGRAPHY OF AN EYE

إبْراهِيْم نَصْر الله

سيرَةُ عَيْن

ثلاثية الأجراس
رواية

الملهاة الفلسطينية



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

* المصوِّرة كريمة عبود 1893- 1940

* استندت هذه الرواية إلى شخصيات حقيقية ووقائع حقيقية،

لكنها بُنيت بالخيال.

* اسم الشخصية وكنيتها، حيثما وردا في الرواية، فهما مرفوعان.

الحياة في الصورة

رغم أن كريمة كانت في السادسة من عمرها حين مات أخوها الصغير، نجيب، إلا أنها كانت تصرّ أنها تتذكره، وتتذكر صراخه وألمه قبل الموت، وقد خلَّف ذلك نُدَبًا كثيرة في روحها.

لم تعد قادرة على النظر إلى وجوه من تحبهم، لأنها تخشى أن تتعذب بفقدانهم.

ذلك الصغير، نجيب، رغم أن سنتين تفصلان تاريخ ميلادها عن ميلاده، كان أجمل هدية قدّمتها لها الدنيا، حين تحوّل إلى كائن خاص، لها وحدها. وحينما اختطفه الموت أحسّت أنه اختطفه منها، هي، لا من أيّ أحد آخر؛ حتى أمّها، بدا صراخها أقلّ انخفاضًا بكثير من تلك الصرخات المكتومة التي كانت تزلزل روح كريمة، ولا تجد لهذه الصرخات مَخرَجًا.

شيء وحيد، أعاد لها ما فقدته، بصورة مباغتة: تلك الصورة التي التُقِطتْ للعائلة. كان نجيب في حضن أمّها.

تتذكّر كريمة، كيف أن المصوِّر طلب منها أن تلتفت نحو الكاميرا، هي التي كانت تنظر نحو نجيب، وحين اضُطرَّت لذلك، مدّت يدها اليمنى وأمسكتْ بيد نجيب اليسرى، كما لو أنها تركت ليدها، بدل عينيها، مهمة التأكّد، من أن نجيب لن يختفي فجأة.

لكنه اختفى..

كما اختفت الصورة من البيت، بعد أن خبأتها كريمة بعيدًا عن أعين الجميع، تلك الصورة التي فتشت أمّها طويلا عنها، ولم تعثر عليها، فاستسلمتْ. وسيظل سرّ الصورة غامضًا، إلى أن تقرّر كريمة إخراجها من مخبئها لأمر لا يمكن أن تظلّ مخفيَّة بعده، قبل أن تعود وتختفي إلى الأبد.

* * *

لم يهدأ حزن كريمة، لم تستطع التوقّف عن سماع صرخات روحها، إلى أن بدأت تقع في حبّ الصّور، كلّ الصّور. لكن ما لم تفهمه، أنها إذا ما أحبت شخصًا إلى حدّ كبير اكتفتْ بالنظر إلى صورته، لا إليه مباشرة.

هل كانت تدرك أن ما يتبقى في النهاية هي الصّور؟

لم تستطع الإجابة على سؤال كهذا، فقد كان أبوها، أبوها الذي تحبه، القسّ سعيد، موجودًا، حتى بعد التقاط مئات الصّور له، من قِبل أصدقائه المصوّرين، الفلسطينيين، الأرمن، والأجانب، الذين يزورون كنيسته، كنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية في بيت لحم، منذ نهايات القرن التاسع عشر حتى مطالع القرن العشرين.

لم تكن مطمئنة لا إلى يقينها، ولا إلى شكِّها.

* * *

لأكثر من سبب، كان القسّ سعيد يظنّ أن كريمة ستقع في حبّ الأورغُن، باعتبارهما في عمر واحد! حيث وصل الأورغُن من ألمانيا، عبر ميناء يافا، في سنة مولد كريمة، كما أن حساسيتها ورقّتها وتأمّلها المستمرّ لكل شيء تراه كانت أمورًا يراها، حتى، الأعمى.

لم يخرُجوا يومًا إلى شارع، أو حقل، أو جبل، في صيف أو في شتاء، أو خريف، أو ربيع، إلا وكانت تتأخر عنهم؛ فمرّة تستمع وتراقب عصفورًا، ومرّة تراقب جندبًا، ومرّة تتشمم الورود البرية وهي تطوف حولها كفراشة، ومرّة تتأمل جدارًا أو بابًا أو نافذة. ينادي عليها والدها، مرّة، اثنتين، خمسًا، وهي في عالم آخر، وفي النهاية يعود ويمسك بيدها ويجرها، دون أن تتوقّف عن ترديد عبارتها التي لا تعرف سواها: بس شوي، بس شوي!

أدرك الأب سعيد أن قلب كريمة وروحها في مكان آخر، أنها ترى أكثر مما تسمع! وحين كان المصوّرون، من معارفه، أو المصورون الأجانب، يأتون لزيارته، كان الشيء الوحيد الذي تفعله كريمة، هو التّحديق في كاميراتهم، ولمسها في غفلة عنهم، كلما انشغلوا في أمر، أو أخذهم الحديث حول ظروف الدولة العثمانية، والمستقبل الغامض للدولة والبلاد.

* * *

في البداية كانت كريمة تعتقد أن كلّ الصور موجودة في الكاميرا، وما وقفة الإنسان أمام الكاميرا، إلا لسبب واحد: أن تتذكره الكاميرا، حتى يستطيع المصوّر بعد ذلك مدّ يده وإخراج صورة ذلك الإنسان المحفوظة فيها! ذلك كان يدعوها للذهاب لتأمّل صورتها في المرآة، وهي تتساءل: هل صورتنا التي في المرآة هي الحقيقية؟ أم صورتنا التي في الكاميرا؟ تمدّ يدها وتلمس المرآة، فترتدّ يدها فارغة، فتصبح على يقين من أن صورتها في الكاميرا هي الحقيقية.

إعجابها بالكاميرا كان يتزايد كلما رأت صورها بين أفراد العائلة، الصّور التي يستخرجها المصوّر من الداخل ويصبح بإمكانهم أن يروها. لكن السؤال الذي ظلّ يحيرها: هل الصورة أجمل، أم الإنسان أجمل؟ تحسست ملامحها وهي تنظر إلى صورتها، ولم تصل إلى جواب.

* * *

ضحك القس سعيد، حين باحت له كريمة بأفكارها تلك، وهي تمشط لحيته وتعدّل شاربيه، ذات صباح، كما تفعل دائما. رفضت أن تقتنع أن هنالك فيلما. قالت: لا، هذا مخّ الكاميرا، يأخذه المصور بعد أن يوقِفنا أمام عينها لتتذكَّرنا، ويدخل ويغلق على نفسه الباب، حتى لا نكشف السرّ، وعندما يُخرج صورتنا، يعيد مخّها إلى مكانه.

ضحك ثانية، وقال: من أين تأتين بهذه الخيالات؟

فقالت: ليست خيالات، فالكاميرا مثل الأورغُن، أنت تجلس وتحرّك يديك، فيسمع، هو، الموسيقى المخبأةَ في داخلك ويخرجها منك، وهكذا نسمعها، أم أن ذلك غير صحيح؟

ـ أظن أن هذا صحيح بطريقة أو بأخرى، ولكن لماذا لا تجلسين وتعزفين لنسمع شيئا من الموسيقى التي في داخلك وهي تخرج من الأورغُن.

ـ هذا صعب عليّ؟

ـ لماذا؟

ـ أنا لا يوجد في داخلي إلا الصّور.

- ولكنك قلت إن الصور موجودة في الكاميرا، أليس كذلك؟

- هذا صحيح، ولكنني حين أنظر إلى الأشياء أحس أنني كاميرا أيضًا.

- أظن أن من الأفضل أن تذهبي وتلعبي قليلا.

- أنا لا أستطيع أن ألعب حين أخرج، أنا أُصوِّر فقط.

- يا ستي، اذهبي إذن وصوِّري.

رجل من القدس

أدرك القس سعيد أنه وجد الدواء الشافي لابنته:

- هل تريدين واحدة كهذه؟ همس، وهو يشير إلى كاميرا صديقه المصوّر يوسف البوراشي.

نظرت إليه، وقد أحست أن عرضًا كهذا لم يخطر ببالها، رغم انبهارها بهذه الآلة العجيبة. بدا لها الأمر وكأنه يشير إلى الشمس ويقول لها: هل تريدين واحدة كهذه؟!

هزّت رأسها.

كل ما فعلته أنها هزّت رأسها، لكنها لم تكن راضية عن نفسها. هل يمكن أن يكون الجواب هزّة رأس؟ مجرد هزّة رأس أمام عرض ساحر كهذا.

لم يجد القس سعيد من شيء يفعله أيضا، سوى أن يهز رأسه! أدركتْ كريمة أنها امتلكت وعدًا، وهذا ما خفّف عنها حماقة تردّدها في أن تجيب إجابة واضحة.

* * *

لم يتحقّق الوعد بالسرعة التي كانت تتمناها، فعادت تؤنِّب نفسها، ويزداد التأنيب أكثر، كلما أخرجت صورة العائلة، وتأمّلت يدها الممسكة بيد أخيها نجيب.

راقبها القس سعيد لأسابيع، عن قرب، وعن بعد، وهو يرى سؤالها يتفلّت محاولا الخروج من جسدها.

وأخيرا سألته:

- ألم تعدْني؟

- أعدكِ بماذا؟

- بأن تشتري لي كاميرا.

- هل سمعتِني أعدكِ؟

- لا، ولكنك هززتَ رأسك.

- هذا لأنك هززتِ رأسكِ أيضًا.

- وما الذي كان عليّ أن أفعله؟

- أن أسمعكِ.

- ولكنكَ فهمتَني.

- هذا لا يكفي. يجب أن تتعلّمي أنك إذا أردتِ شيئًا فإن عليك أن تكوني أكثر جرأة، لتناليه.

صمتت كريمة.

- وكان عليَّ أن أتأكد من أنك تريدين فعلا ما طلبتِ. سأقول لك كلمة كبيرة عليك، ربما، ولكنك ستتعلمينها، إن لم يكن اليوم فغدا.

- أي كلمة؟

- الشغف، كنت أمتحن شغفكِ، أي شوقك الدّاخلي الذي يملأ قلبك، وتعلّقكِ القويّ بما طلبتِ، وولعكِ به، فالكاميرا ستكلّفنا الكثير أيضًا.

* * *

في ذلك الربيع، كان كل شيء رائقًا، قال لها: لماذا لا نذهب إلى البرية؟

- أمّي ليست هنا، و..

- أريد أن أذهب أنا وأنت فقط.

- أنا وأنتَ؟!

* * *

سارا فوق عشب يانع، وأزهار برية مختلفة الألوان. وفجأة قال لها توقّفي. توقّفت، طلب منها أن تُغمض عينيها، بسرعة أغمضتْهما، ولم يخطر ببالها سوى شيء واحد، أنها حين تفتحهما، ستجد الكاميرا أمامها. لكن ذلك لم يحدث.

- أنا متأكد من أنك تستحقين الكاميرا التي وعدتكِ بها. هل تعرفين لماذا؟

- لأنني أملك عينين جيدتين. صحيح؟

وبدأ قلبها يخفق بشدّة، قبل أن تسمعه يقول:

- صحيح، ولكن، دعينا نتأكد من أنك تملكين أنفا جيدًا كعينيكِ!

وقبل أن تفهم قصده، قالت وهي تُغلق عينيها بشدّة أكثر: أنا جاهزة.

يريد أن يمتحنني ليرى ما إذا كنت أستحقّ حلمي، لا بأس، همستْ لنفسها.

- هل تستطيعين أن تعرفي الوردة التي في يدي، من رائحتها؟

تشمّمت الوردة؛ أخذت نفسًا عميقًا، فأوشكت الوردة أن تقفز من بين أصابع القس سعيد وتلتصق بفتحتَي أنفها.

- بابونج، هذه سهلة.

وقت طويل مرّ، وهي تتنقّل مغمضة عينيها، خلف والدها، سعيدة باللعبة، بنجاحها، وفشلها، إلى أن تذكرت أنها أغمضت عينيها أكثر مما يجب، فقالت: أظنّ أن هذا يكفي، لأنني أخاف إن أغمضتهما أكثر أن أفقد البصر، وأخسر الصّور.

* * *

بعد زمن طويل، وصل رجل من القدس، يحمل كاميرا جميلة، بعد الغداء، خرج مع القس سعيد إلى الساحة العالية أمام باب الكنيسة، والتقط مجموعة من الصوّر للسهل الممتد الذي تنتصب فيه عدة بيوت حجرية ورديّة جميلة.

راقبته كريمة، من بعيد، وهي تحسده على امتلاكه لكاميرا رائعة مثل تلك.

حين أفاقت صباح اليوم التالي، كان المصوّر يلوّح لأبيها وهو يبتعد، من خلف مقود سيارته التي أطلقتْ مزيجا من دخان رماديّ، وصوت محرّك أجشّ، وغبار كثيف خلْفها.

عادت كريمة ودخلت البيت، في وقت ظلّ فيه القس سعيد أمام البوابة يراقب السيارة تختفي. وقبل أن يستدير ليدخل سمع صوت كريمة تصيح: لقد نسيَ الكاميرا. لقد نسيَ الكاميرا.

التفتَ القسّ سعيد نحو ابنته المنفعلة، وقال: لا بأس، سيعود بعد شهرين أو ثلاثة، ويأخذها.

- كيف يمكن أن يحتمل ذلك؟

- ماذا تعنين؟

- أن يكون بعيدًا عن الكاميرا التي له.

- إذا عاد سريعًا، فمعنى ذلك أنه يحبّها، فهو يملك سيارة، ولم يبتعد كثيرًا عن بيتنا.

فجأة تراجع إعجابها بذلك المصوِّر، وأحست أنه لا يستحقّ الكاميرا التي يملكها.

* * *

بعد نصف ساعة لم يكن قد عاد، ساعة، ساعتين، وبدأت الشمس تغيب، ولم يعُد، لكن عين كريمة لم تغب عن الكاميرا.

حول مائدة العشاء، كانت الأسرة كلّها هناك: الأب، الأم، كاترينا، منصور، كريم، وليديا التي لم تزل في حضن أمّها، وكريمة.

- رأيي أن لا نعيدها إليه؟ قال القسّ سعيد.

ولم تكن كريمة بحاجة لمن يقول لها ما الذي يقصده بكلامه، لكنها ظلت صامتة.

- لقد تأخرتُ في اتخاذ هذا القرار حتى نجتمع كلّنا، لأنني أريد أن أسمع رأيكم.

- ولكن الكاميرا له. قالت كريمة بشكل قاطع.

- ألم أعدكِ بكاميرا؟ فلتكن هذه لك.

- ولكنني أريد كاميرا خاصة بي، لا كاميرا شخص آخر.

ابتسم القسّ سعيد، وسألها:

- ومن قال إنها لشخص آخر؟

- أتعني أنها ليست له؟!

- ليست له، إنها لشخص آخر في هذا البيت، ظريف ولطيف ويحبُّ التصوير.

عند ذلك، أحست كريمة بنفسها تدور وتدور. أما أغرب ما حدث، فإنها حين أوقفتْ دورانها، كانت على يقين من أنها التقطتْ مئات الصور.

نداء الأورغُن

القسّ سعيد، أيضًا، كان قد وقع في غرام الأورغُن ما إن سمعه في شباط، فبراير، من السنة الأخيرة للقرن التاسع عشر.

كان الأب بوتشر، راعي الكنيسة في بيت لحم، الذي استدعاه للعمل كواعظ يرحِّب به، لكن أذنَي القس سعيد كانتا في مكان آخر. مسحورًا بذلك الصوت الذي لم يسمع صوتًا بنقائه من قبل، صوت الأورغُن العميق الجميل؛ حتى لقد خيِّل إليه أن ذلك الأورغُن يعزف نفسَه بنفسه، مكتفيًا بذاته، وليس في حاجة لأيّ أياد بشرية.

شعَر القس بوتشر بالحالة المسيطرة على القسّ سعيد، فصمت، بعد أن أدرك أن كلّ ما قاله ابتلعتْه رخامةُ نغمات الأورغُن.

خطا خطوتين نحو أول مقعد بجانبه وجلس متأمّلا هذا الشغف الذي لم يرَ مثله، الشغف الذي حمل القسّ سعيد إلى مكان لا يستطيع أحد أن يعرفه، مأخوذًا بتلك النغمات السّحرية.

نغمات كتلك، لو مضت إلى خارج الكنيسة، لتبعها القس سعيد إلى وطن النغمات الأول، الذي لا يعرف القس بوتشر، في الحقيقة أين يوجد، ولعل موطنها قلب الرّب نفسه.

كان لا بدّ من أن يصمت الأورغُن أخيرًا، فصمت، لكن القس سعيد واصل الاستماع كما لو أن العزف لم يتوقف. هل كان يواصل الاستماع لصداها؟ أم كان يستعيدها؟

زمن طويل مرّ، قبل أن يتحرّك القس سعيد، ولكن بدل أن يتحرك باتجاه القس بوتشر، مضى صوب الأورغُن كمنوَّم، والقس بوتشر يراقبه.

جلس خلف الأورغُن، أغمض عينيه، وفجأة، راحت النغمات تُولد من جديد، النغمات نفسها، النغمات التي استمعا إليها معًا. لكن شيئًا ما كان مختلفًا في عزف القس سعيد، لم يستطع القس بوتشر أن يجد له اسمًا، ولكنه كان على يقين من أنه عزف مختلف، أفضل، أجمل، أعذب، أكثر اتقانًا ونقاء، وفيه لمسة من روح مختلفة.

وقع القس بوتشر في ذهول الحالة نفسها التي وقع فيها القس سعيد من قبل، حتى أنه سأل نفسه فيما إذا كان قد قال شيئًا حتى الآن للقس سعيد أم لا؟!

تواصل الصمت بعد أن انتهى العزف، لكن القس سعيد لم يغادر مكانه؛ تحوّل إلى جزء من جسد الأورغُن.

* * *

أخيرًا، استطاع القس بوتشر أن يجد قدميه، نهض، سار حتى وصل الأب سعيد، وضع يده على كتفه، أحسّ أنه يضع يده على عاطفة ما، يشعر بها، ولكنه لا يلمسها حقًا.

- ما دمتَ ستكون واعظًا في بيت جالا[1]، فلن تكون بعيدًا عن هذا الأورغُن. باستطاعتك أن تأتي متى شئت لتعزف عليه.

في تلك الليلة، بعد أن تناول والقس سعيد طعام العشاء معًا، استيقظ القس بوتشر عند منتصف الليل على صوت الأورغُن، كان ذلك أغرب شيء يحدث منذ وصوله إلى مدينة بيت لحم. أغرب شيء حدث معه في حياته. سار باتجاه باب الكنيسة الجانبي، وضع يده على أكرة الباب، أصابته الرّهبة فجأة، كان على يقين من أن الموسيقى ستتدفّق وتجرفه ما إن يُشرع الباب. لكن كان لا بدّ عليه أن يفعل شيئا في النهاية؛ حرك أكرة الباب بحذر، فسطع ضوء هائل غمر كلّ شيء. في تلك الليلة من ليالي شتاء السنة الأخيرة من القرن التاسع عشر، أصبح القس بوتشر على يقين من أن الموسيقى ضوء لا مثيل له.

* * *

طوال ستّ سنوات قضاها في بيت جالا، لم يترك القس سعيد مناسبة أو فرصة إلا وجاء للعزف.

كان ذلك الأورغُن، الذي وصل من القدس إلى بيت لحم، ذات يوم من أيام عام 1893، تحمله الخيول، قد حطّ في مدينة عامرة يزيد عدد سكانها على أربعة آلاف إنسان، لكن ذلك الأورغُن لم يكن قد وجد تلك الأيدي الموصولة بروح عميقة تستخرج من أعماقه أجمل النغمات وأرقّها وأقواها.

في ذلك العام، تذكّر القسّ سعيد، أن كريمة ولِدَت، بحيث أصبح يقول فيما بعد كلّما سأله أحد عن أعمار بناته: ولدت كاترينا قبل عام من وصول أورغُن الكنيسة من القدس، وكانت كريمة محظوظة أنها ولدت في العام نفسه، وولد نجيب بعد وصوله بعامين، ولم نكد نرتل له : (يا ربّ طفل قد أتاك) حتى رتّلْنا في يوم دفنه: (أمكث معي يا ولدي). لقد مات طفلا. وبعد أربع سنوات من وصول الأورغُن أكرمنا الرّب بكريم، وبعد عشر سنوات ولِد منصور، وبعد ثلاثة عشر عامًا جاءت ليديا آخر العنقود.

المسألة الصعبة

في باحة كنيسة المهد، حيث الهدوء الكامل، كما لو أن العالم ينتظر الصرخة الأولى ليسوع الطفل، قادمة من جوف المغارة، وقفت كريمة، الكاميرا أمامها، وهي تدور حولها كفراشة بفستانها الأبيض الطويل الذي تعبث به الريح. كانت تريد أن تلتقط صورة واحدة، صورة معجزة، يظهر فيها العالم كلّه، ببحاره وأنهاره وشعر وبه، بغاباته وجباله وسهوله وصحاريه، بطيوره وغزلانه وخيوله وجنادبه.. بكل شيء فيه.

أن تكون لها كاميرا في النهاية، أن تستطيع الإمساك بأحلامها، أن تشكل أحلامها كما تريد، أن تعجن هذه الأحلام، وتصنع منها، كما يصنع الخزاف من الطين ما يريد.

كانت تعرف أن الصورة الأولى هي أهم الصّور، هي خطوتها في هذا العالم الذي تحبه، هي طيرانها، هي انطلاقها في الأرض.

حولها كانت المباني الحجرية الجميلة، كنيسة المهد بكامل بهائها. فكّرت أن تكون صورة الكنيسة هي أول الصّور. تذكرت عشرات الصّور التي رأتها للكنيسة. لم يمرّ مصور أجنبي من هنا، إلا التقط صورة للكنيسة. بعضهم ليثبت معلومة وردت في الكتاب المقدس، بعضهم للمتاجرة بالصورة، وبعضهم ليزهو بوصوله إلى بيت لحم، مهد المسيح، والتقاطه الصورة بنفسه.

على أيّ حال، لم يكن الضوء السّاقط على الكنيسة في ذلك الضحى هو الضوء الذي يساعدها على التقاط صورة حلمتْ بها. ساطعًا كان، مشكِّلا ظلالا تحجب سحر الحجارة في بعض الزوايا بالعتمة الثقيلة.

* * *

استعادت كريمة تلك الأفكار التي كانت تحوّم في رأسها كسرب نحل، قبل أن تكون لها كاميرا، قبل أن تتجرأ على أن تحلم بكاميرا لها، وحدها: أن تصوِّر فهذا يعني أن ترسم بالشمس؛ هكذا سمعت المصورين يقولون أكثر من مرّة وهي طفلة. في البداية اعتقدت أنهم يمسكون الشمس ويرسمون بها على الورق، حتى أنها مدّت، في لحظة جنون، يدها نحو السماء، وعندما تأكدت، في تلك الأيام، من أن الشمس بعيدة، ولا يمكن لأحد أن يمسك بها، أدركت أنهم يقصدون شيئا آخر. لكنها في تلك الليلة، فكرت: ربما لأنهم أطول مني بكثير، تستطيع أيديهم الوصول إليها.

صباح اليوم التالي، استيقظت مبكرًا، توجّهت إلى الباب، رأت الشمس، ابتسمتْ، دخلتْ، طلبتْ من أبيها أن يتبعها إلى الحديقة الصغيرة، حيث الصنوبرات الأربع والنخلة والدالية، وأشجار الليمون الخمس.

تبعها.

قالت له: ارفع يدك إلى الأعلى.

رفعها.

- نحو الشمس، قالت له.

وجّه يده صوب الشمس.

- ارفعها أكثر.

ورفعها أكثر، لكنه لم يصل للشمس. نظرت حولها، رأت كرسيًّا، بسرعة انطلقت وأحضرته.

- إذا سمحتَ، اصعد على الكرسي.

أخذ القس سعيد نفسًا عميقًا، دون أن يكفّ عن الابتسام، ودون أن يقول أي كلمة.

- الآن ارفع يدك، نحو الشمس.

ورفعها ثالثة، فقالت:

- هذا يكفي.

- هل أستطيع أن أنزل الآن؟!

- أجل، باستطاعتك.

وقبل أن يسألها عن سبب قيامها بتلك التجربة، كانت قد اختفت في الداخل.

كانت الأسرة كلها قد اجتمعت لتناول طعام الإفطار. لكن كريمة لم تأتِ.

طلب القس سعيد من ابنه كريم أن يذهب لاستدعاء أخته.

طرَق الباب. لم تُجب، وطرَقه ثانية.

وسمعها تدعوه:

- تفضل.

دخل كريم فوجدها محتضنة رأسها.

- هل يوجعك رأسكِ؟

- لا، أنا أفكر.

- تفكرين في ماذا؟

- في مسألة تشغلني كثيرًا، حين أجد حلّها سأخبرك.

- ما رأيك أن تأتي لتأكلي، ربما سيساعدك الطعام على التفكير بصورة أفضل، أو باستطاعتك أن تسألي أبي.

- لا أظن أن القسّ سعيد يعرف الإجابة!

- أبي يعرف كل الإجابات.

- لقد صعد على الكرسي، ولم يستطع أن يلمس الشمس، فكيف سيحلّ المشكلة التي أفكّر فيها؟!

- إذا كان الأمر كذلك، فيفضّل أن تبقي جائعة، إلى أن تتوصّلي للحلّ.

.. وخرج كريم. أقفل الباب خلْفه، محاولًا كتْم ضحكة كانت تتفلّت في صدره. وقبل أن يصل الغرفة التي تتناول فيها الأسرة الطعام. سمع الباب خلفه يُفتح. فأدرك أن الجوع غلب كريمة. لكنها فاجأته، حين جلست تحدّق في صحن الطعام أمامها، دون أن تمدّ يدها إليه.

* * *

في المساء طلبت من المصوّر يوسف البوراشي، الذي جاء لزيارة الكنيسة، أن ينحني لتهمس له.

انحنى. سألته عن الرسم بالشمس، وكيف أنها حاولت أن تمسك بها ولم تستطع، وجعلت أباها يحاول، مع أنه أطول من الجميع، وأطول منك أيها العم يوسف، ولم يستطع أيضًا، فكيف تستطيع أنت أن ترسم بالشمس؟!

ضحك العم يوسف، وقال لها:

هذا حديث يطول. هل معك وقت لأشرح لكِ؟

- كلّ الوقت، لا شيء ورائي. الشّكر للرّب أنني رفضتُ اليوم أن أقبل بخياطة أطراف فستان معلمتنا الإنجليزية، وإلا لما كان لدي الآن وقت لسماعكَ.

- فستان؟

- فستانها. قالت لي أنتِ شاطرة يا كريمة في الخياطة، سأعطيكِ الفستان لتخيطي أطرافه، فرفضت.

- رفضتِ! لماذا؟

ـ قلتُ لها، لا تغضبي منّي، إذا خطتُ اليوم فستانكِ، فسيكون مصيري أن أكون خياطة، وأنا لا أريد مصيرًا كهذا.

ـ وماذا قالت لك؟

ـ سألتني، وهل تريدين أن تكوني أميرة، حضرتكِ، في هذه البلاد المتخلِّفة؟!

ـ وماذا أجبتها؟

ـ قلت لها أريد أن أكون فنانة، مثل عمّي يوسف، وأرسم بالشمس، ثم إن يسوع الذي تعتنقين دينه، هو ابننا، ابن هذه المدينة، فهل تقولين أنك تعتنقين دين المُتخلِّفين؟

ـ أظنها غضبت.

ـ كثيرًا، ولكنني لم أهتم، ربما لو كانت تحبّنا قليلا، لخطتُ لها الفستان، ولكنها لا تحبنا.

ـ كيف؟

ـ هذا موضوع آخر، سأحدّثك عنه فيما بعد! أما الآن، فعليك أن تشرح لي، إذا سمحت، كيف ترسم بالشمس؟

كل ذلك الحديث كان يدور همسًا، ولا يستطيع أحد سماع أيّ كلمة منه.

راقبهما القس سعيد يبتعدان، حتى وصلا النّخلة، وهناك، بقيا يتحدثان عشر دقائق، قبل أن يرى يد كريمة تمتد لتصافح العم يوسف، وهي تبتسم.

* * *

لم يستطع العم يوسف معرفة سرّ اهتمام كريمة بالتصوير. عرض عليها أن تلتقط صورة بنفسها، مستخدمة الكاميرا الخاصة به، لكنها كانت تتراجع خطوتين دائما. وتشدّ قبضتيها، كما لو أنها تريد أن تسدّ الطريق على يديها.

بعد أيام، أحضر الكاميرا، وما هي إلا لحظات، حتى ظهرت كريمة وراحت تدور حولها.

- كريمة، لا تريدين التقاط صورة. لن أطلب منك هذا مرة أخرى، ولكن، لم لا تضعين رأسك داخل الغطاء الأسود للكاميرا لتري كيف يكون العالم عبر العدسة.

هزّت كريمة رأسها رافضةً.

- على راحتكِ!

كانت جملته أكبر إغواء تتعرّض له في حياتها، ابنة الثانية عشرة. لانت ملامحها بعد ذلك الرّفض فجأة، فالتقط يوسف، وهو المصور الخبير، ذلك.

لم يطرح عليها السؤال مرة أخرى، قال لها: هيا، لنبحث عن مكان واسع يمكن أن يكون الأجمل الذي يمكن أن تشاهديه ورأسك الصغير مختفٍ في العتمة.

سارت كريمة على بعد عشرة أمتار منه، سعيدة، منفعلة، حذرة، ومرتبكة وهي تتساءل: هل سيكون العالم مختلفًا داخل الكاميرا؟ غير العالم الذي أراه؟ هل سيكون للأشجار شكل آخر؟ للناس؟ للبيوت؟ للسهول؟

قطع يوسف حبل أفكارها: أترين؟ هناك في الأسفل بيت ساحور، وهناك سهل الرعاة.

ثبّت حاملَ الكاميرا، وبعد لحظات دعاها أن تتقدّم.

ألقت نظرة على بيت ساحور وسهْلها الممتد شرقًا كأنها ستشاهده آخر مرة، فقد أحست أنه سيغدو سهلا آخر بمجرد أن تراه عبر عدسة الكاميرا.

طويلا ظلّ رأسها الصغير في الداخل، كانت مبهورة وسعيدة. سألها يوسف: كيف ترين العالم؟

- حلو، ولكنه مقلوب، هل عليّ أن أقف على يدي كي أراه كما هو؟

- لا.

- ولكن كيف يمكن أن أعيده لوضعه الصحيح؟

- هذه هي مهمّتكِ كمصوِّرة.

- كيف؟ جاء صوتها من الداخل مخنوقًا.

- لقد سألتُ معلِّم التصوير هذا السؤال حين كنتُ مكانك، فرد عليّ: عليكَ أن تجد طريقتك الخاصة لتعيده إلى وضعه الصحيح.

- وهل وجدتها؟

- لقد حاولت.

- ولكن صورك التي رأيناها كانت صحيحة، رؤوس الأشجار فوق، والأرض تحت.

- ليس هذا ما كان يعنيه مُعلّمي.

- ماذا كان يعني؟

- حين تصبح لديك كاميرا مثل هذه، ستفكرين بصورة أفضل. وصمت قليلا، ثم قال: يكفيكِ يا كريمة!

حرَّكت يدها وضربته برفق على يده، ففهم أن عليه أن يصمت.

كانت تلك واحدة من أسعد اللحظات بالنسبة ليوسف، يوسف الذي رعى والد كريمة مراسم حفل زواجه، كما رعى مراسم تعميد وزواج مئات من أبناء الطائفة منذ أن تمّ بناء الكنيسة بدعم من الأب شنللر، الذي أسس المدرسة السورية للأيتام؛ المدرسة التي ستتخرج منها كريمة بعد بضعة أعوام، المدرسة التي سيتحوّل اسمها بعد زمن إلى مدرسة شنللر.

لم يكن صعبًا على يوسف أن يعرف أن هذه البنت تحبّ الكاميرا أكثر مما يحبها، أكثر بكثير؛ وداهمته موجة حزن: ولكن ما الذي يمكن أن تفعله هذه البنت حتى لو كانت تملك ألف كاميرا، ما دامت مهنة التصوير للرجال وحدهم؟!

بات يوسف على يقين من أن كريمة ستختنق داخل الكاميرا. أحسّ أن وقتا طويلا مرّ وهو مشغول بأفكاره. لقد نسي البنت التي يفكِّر فيها! نسيها: كريمة. هل اكتفيت؟!

لم تتحرّك يدها هذه المرة، أمرته بصوت مخنوق: كمان شوي!

عاد الهواء ثانية إلى رئتي يوسف. وحين بدأت الشمس تغيب خلفهم، قال لها: أظن أن ذلك يكفينا.

فقالت دون أن تخرج رأسها: أريد أن أرى كيف تغيب الشمس، وكيف يهبط الليل، وكيف تشرق الشمس ثانية غدا.

- كريمة، من الصعب أن نفعل هذا كله مرة واحدة.

- لماذا؟

- لأن علينا أن نعود إلى بيتكِ، فأهلك ينتظرون.

- خلاص، اذهب أنت وإذا سألك أبي، قل له، إن كريمة ستنام خارج البيت هذه الليلة.

- ولكن أين يمكن أن تنامي؟

- في الكاميرا، قل لأبي إن كريمة ستنام في الكاميرا هذه الليلة.

بحثا عن الصورة الأولى

حملت كريمة الكاميرا وعادت إلى البيت، الكاميرا خاصتها، الكاميرا التي أهداها إياها القس سعيد. حملت حلمها وعادت إلى البيت، تاركة ساحة المهد خلفها تضجّ بالحياة، الحياة التي غدت صاخبة، الحياة التي صمتت طويلا لتتيح لكريمة التقاط صورتها الأولى، وحين أدركت الحياة أنها لن تفعل، عادت تصطخب من جديد.

هرول والدها حين رآها مقبلة، كان فرحًا إلى درجة لم يعرفها من قبل: دعينا نرَ حصاد رحلتكِ الأولى.

وتراكض أخوتها وأمها وأخواتها.

- لا تستغربوا، لم ألتقط أيّ صورة.

- منذ ثلاث ساعات وأنت في الخارج، ولم تلتقطي أي صورة؟! قال والدها.

- هذا صحيح.

- لماذا؟

- لأنني لم أجد المشهد الذي عليّ أن أصوّره.

- أنت في بيت لحم وتقولين هذا؟! هل تعرفين كم عدد الصور التي التقطها المصورون لهذه المدينة؟ سأل أبوها دهشًا.

- كثير، كثير جدًا، ولكنني لا أريد أن أكون مثلهم.

- تريدين أن تكوني مثل مَن إذًا؟

- مثلي، أريد أن أشبه نفسي، لا أن أشبههم.

- سننتظر إذًا، لدينا الكثير من الوقت.

- لا يا أبي، ليس لدينا الكثير من الوقت؟

- وبعدين؟

- لدينا الكثير من الوقت لنفعل أشياء كثيرة، ولكن ليس لدينا الوقت الكافي لالتقاط الصّور التي نريدها، في هذه لن يكون لدينا وقت.

- إذن صوِّري.

- سأصوِّر يا أبي، سأصوِّر، ولكنني أريد شيئًا مختلفًا.

أحسّت كريمة بالضيق الذي أطبق على صدر القسّ، فقالت وهي تبتسم: أريد أن أسألكم سؤالا.

- تفضلي. قال والدها وهو يأخذ نفسًا عميقًا.

- عين + عين، كم يساوي؟!

- اثنتان، قالت ليديا الصغيرة ساخرة.

- خطأ! ردّت كريمة.

بكت ليديا، همس القسّ سعيد في أذنها، فضحكت!

راح الجميع ينظرون في وجوه بعضهم، فقالت كريمة: عمّي يوسف يعرف الجواب منذ مدة طويلة.

حدّقوا في وجه العم يوسف، فرأوه أكثر ارتباكا منهم.

- يبدو أن عمك قد خرّف لفرط ما وضع رأسه داخل كيس الكاميرا. قال يوسف.

- استسلمتم إذًا؟

- استسلمنا، ردّوا بصوت واحد، كم النتيجة؟

أخذت كريمة نفسًا عميقًا مقلّدة والدها دون أن تنتبه، وقالت: عين+ عين، يساوي...

وقبل أن تحلّ المسألة، سمعوا طرقات على الباب. وضعت كاترينا غيتارها الذي كانت تعبث بأوتاره طوال الوقت، وكأنها تهرش رأسها بحثا عن حلٍّ لسؤال كريمة، نهضت واتجهت إلى الباب.

سمع القس سعيد الصوت فعرفه: جئت في وقتك يا مختار؟

فردّ مختار الطائفة: قلْ أهلا وسهلا أولا.

فردّ القس: كان عليك أن تُلقي السّلام.

- وهل تركتَ لي فرصة؟ خير؟

لم يكن المختار وحده، كان معه توفيق، أكبر أولاده، الوحيد من عائلة خليل باسيل الذي تعمّد على يد القس لودفيك شنللر عام 1888.

تركت كاترينا مكانها للعم توفيق، في حين جلس المختار بجانب القس سعيد على الأريكة الثلاثية المورّدة.

- لقد طرحت كريمة مسألة، كانت صعبة علينا، رغم سهولتها في الظاهر. قال القس.

- أسمِعونا، ونأمل أن لا تكون صعبة علينا أيضًا.

حين سمع المختار المسألة من فم كريمة، كريمة التي كانت تحاول كبت ابتسامة لئيمة، هرش شاربيه بسبابته اليمنى خمس مرات بسرعة، ثم راح يتصفّح وجوه الآخرين.

أدركت كريمة أنه يعلن استسلامه.

طلب توفيق، الذي كان مصوِّرا محترفًا أن يأذنوا له بالإجابة.

- تفضل، وأرحنا.

- عين + عين= البصر!

- كيف لم تخطر ببالنا ردّد أكثر من واحد منهم.

ابتسمت كريمة وهي تتصفّح وجوههم بسعادة نادرة، وقالت: خطأ!

وللحظة بدت أنها على وشك أن تنطق الحلّ، إلا أنها صمتت. قبل أن تضيف: سأتزوج ذات يوم من الرجل الذي سيحلّ هذه المسألة.

امتدّت يد القس سعيد إلى لحيته، وقبض عليها بقوة كما لو أنه سينتزعها. كان على يقين من أن الكاميرا أخذت عقل ابنته لطول ما حلمت بها، وقال:

- أرجو أن يرسل لنا الرّب، الآن، من يحلّ المسألة ويريحنا من جنونكِ.

ولم يكد ينهي جملته، حتى سمعوا طرْقًا قويًّا على الباب!

الصورة الضائعة

ستة أيام حملت كريمة الكاميرا وخرجت باحثة عن الصورة الضائعة. في الأيام الأربعة الأولى كانوا ينتظرونها وليس في أفواههم سوى سؤال وحيد: هل وجدتِها؟

الصمت وحده كان هناك، الصمت الذي تحوّل إلى حزن في البداية، ثم إلى أسىً اعتصر ملامح كريمة ورشقها باصفرار لم يروا مثله من قبل.

توقّفوا عن سؤالها في اليوم الخامس، وفي اليوم السادس اختفوا ما إن سمعوا خطواتها تقترب من الباب. لسبب خفيّ لا يعرفونه، أصبحوا يخشونها. وفكّر القس سعيد طويلا والهمّ قابض قلبَه: هل كان عليه أن يهديها الكاميرا فعلا؟ كيف يهدي الإنسان إنسانا آخر حلمًا فيتحوّل الحلم الذي تحقق إلى لعنة، إلى كابوس، إلى شقاء؟! وتساءل: هل سعادتنا الفعلية هي بحثنا عن أحلامنا وجرينا وراءها، أم بلوغ تلك الأحلام؟

حاول أن يستحضر كلمات من الكتاب المقدس تعيْنه، لكنه اكتشف أن قلقه على ابنته أفرغ رأسه، حينما حشر في قلبه كل ذلك الغمّ.

ـ أظن أن عليكَ أن تنام، قالت له بربارا، زوجته.

ـ تعرفين، إن أعقد شيء في هذا العالم هو النوم؛ عادة، يأخذك دون أن تشعر وكأنه يسكن كل شيء فيك؛ وإذا ما طلبته هجرك، كأنه لم يمرّ على أي عضو من أعضاء جسدك في أيّ يوم مضى، كأن أجسادنا تلاميذ صغار يدخلون المدرسة للمرة الأولى، وحين يكتب المعلم كلمة على اللوح، ويطلب منهم قراءتها، يفتحون أعينهم دهشًا، وأفواههم، لكنهم لا يتوقّفون عن النظر إلى تلك

الكلمة الغامضة البسيطة، التي قد تكون كلمة النوم، هذه الكلمة التي لا أستطيع قراءتها الآن وقد كُتبت بطباشير سوداء على لوح هذا الليل.

- نم يا سعيد، أظن أن أفضل شيء يمكن أن تفعله الآن هو أن تنام.

- ولكن، أخبريني كيف ينام الإنسان؟ هل يغمض عينيه؟ أغمضتهما. هل يطفئ الضوء؟ أطفأناه. هل يخفي رأسه تحت اللحاف ويتوقّف عن الكلام؟ لقد فعلتُ كل هذا.

- لم لا تذهب إذًا إلى غرفة البنات، وتتحدّث مع كريمة، لا أظنها نائمة.

نهض القس سعيد، غادر السرير، فتح الباب، سمع اصطكاك خشبهِ بالعتمة الجافة.

كانت يده على وشك أن تنقر خشب باب غرفة البنات، لكنها تجمّدت في الهواء، استدار نحو الباب الخارجي للمنزل، أشرع الباب، جلس على العتبة.

بردُ أيلول الخفيف، كان ضروريًّا لكي ينفض عن جسده آثار نوم كاذب، نوم غبار. رفع نظره إلى السماء، كانت محتشدة بنجوم لم يرها منذ سنوات طويلة. وخطرت بباله فكرة أنه لم يرَ من قبل صورة لليل والنجوم، خطر بباله: لم لا تنهض كريمة الآن، وتلتقط صورة لليل، للنجوم، لهذا الصمت.

نهض، سار نحو باب الغرفة، طرق الباب بخفّة لا توقظ سوى أولئك الذين هجرهم النوم. لحظات، انفتح الباب: أبي؟!

- تعالي، سأريكِ شيئًا لم تريه من قبل.

- لحظة.

دسّت كريمة قدميها في أول حذاء تلمّسته، وتبعت والدها.

جلس القس سعيد على العتبة، محدِّقًا فيما حوله، محاذرًا أن يرفع رأسه إلى السماء ليرى ثانية ما رآه. كان يريدها أن تكتشف بنفسها الليل، وأن تعود بصمت وتحضر الكاميرا، وتحاول، فقد تنجح في التقاط صورة فريدة تتمنّاها، صورة لم يلتقطها أحد قبلها، من يعرف؟

جلست بجانبه، امتدّت ذراعه اليمنى نحوها، طوّقها. رائحة مطر لم يهطل بعد، تسللت إلى العشب الجاف والأشجار التي تتمنى أن تمتلك أقدامًا لتعدو وتتجاوز فصل الخريف.

رفعت كريمة رأسها إلى الأعلى، رأت النجوم ساطعة، كما لم ترها من قبل أيضًا. فوجئت أن بعض البشر قد يعيشون ويموتون، دون أن يروا مشهدًا بسيطًا كهذا. هي نفسها لم تره، رغم أنها عاشت كلّ تلك السنوات.

وفكّرت: لو أستطيع تصوير الليل! أهو الصورة التي بحثتُ عنها طويلا في النهار، ولهذا لم أرها؟!

ولكن كريمة كانت تعرف أن تلك صورة مستحيلة، فلم تكن متأكّدة من أن الكاميرا التي تستطيع التقاط صورة للنجوم قد اختُرعتْ، أو اخترعوها، ولكنها لم تصل بعد.

- أظن أنني أعرف ما فكَّرتَ وتفكّر فيه، يا أبي.

- بماذا فكَّرتُ وأفكّر؟

- بأن تُريحني، بأن تكون عينَي، وترى الصورة التي عليّ أن التقطها، الصورة التي مرّت أيام وأنا أركض وراءها عبثًا ولا أستطيع الإمساك بها. ولكن لا عليك، صورة كهذه عليّ أن ألمحها أنا، أن التقطها أنا، وإلا ستكون النتيجة، صورة سوداء، كالصورة التي يمكن أن أُجنَّ والتقطها الآن لهذا الليل، لأكتشف فيما بعد أنها صورة فارغة، صفحة سوداء، سوداء جدًا، لا أثر لضوء نجمة واحدة فيها. هل تعرف ما هي الصورة يا أبي؟

- ما هي الصورة؟

- إنها أوضح ظلّ للإنسان.

- وهل تعرف ما هي أقدم صورة للإنسان؟

- عرفتُ، لقد أخبرتِني بالإجابة قبل أن تسألي! إنها ظلّه.

- أتعرف ما هو الغريب في المسألة؟ أن الإنسان احتاج لكلّ هذه القرون، كي يستطيع رؤية ملامح ظلّه.

- لا تقولي لي إنك بحاجة إلى عدة قرون لالتقاط الصورة التي تريدينها؟

- اطمئن لقد اختصر كل من عاشوا قبلي الطريق علـيّ، ولكن هل تعتقد أن الليل هو ظلّ النهار؟

- لقد فكرتُ في هذا منذ سنوات، وقلتُ لعله ظلالنا، ظلالنا التي تفرّ، لتتجمعّ هناك، بعيدًا عن أجسادنا، وعنّا، ما إن تتأكّد أننا نمنا!

تنفسّت كريمة بعمق، حتى أحسّت أن كل الهواء الذي يهبّ لطيفًا من البحر البعيد، حتى بيت لحم، تجمّع في رئتيها.

- أظن يا أبي، أنني لم ألتقط الصورة التي أريدها حتى الآن، لأنني لـم أزل أقصر من الكاميرا، رغم أنني في طول نخلة، ولأن تلك المسألة التي حيرتكم بها قبل أيام، لا تنطبق عليّ!

- أي مسألة؟

- عين + عين= ..؟

- تساوي ماذا؟

- تساوي عين واحدة، هي عين الكاميرا! كنت أعرف الحلّ ولكنني لم أزل غير قادرة على أن أُجمِّع عينَي في عين واحدة: عين الكاميرا، ولذا، لم أستطع بعد التقاط الصورة التي أحلم بها.

- كنت أعتقد أنك كنت جادة في مسألة أنك لن تتزوجي سوى من ذلك الذي سيحلّ المسألة.

- كنت أمزح، هل تعتقد أنني مجنونة بحيث أطيّر عريسًا يستحق، من يدي، لأنه لن يحل مسألة كهذه؟!

ابتسم القس سعيد، فأحست كريمة أن ضوء كاميرا خلفهم قد سطع فجأة، فرأت كل ما في الحوش واضحًا في العتمة.

- أظن أن باستطاعتي النوم الآن. قال.

- وأنا أيضا، لكنني سأبقى هنا قليلا، فقد تخطر ببالي فكرة، أو أرى شيئا لم أستطع أن أراه في النهار.

- لا تتأخري.

- سأنتظر بزوغ شمس اليوم السابع، لعلها تقول لي شيئًا.

صباح مختلف

لم تكن كريمة تعرف كم تحبّ الخريف، لم تعرف كم هو رائع ومذهل، كم هو نقيّ وصاف، كم هو رائق. فكّرت: إنه أجمل موت على الأرض، أجمل موت عرفته الخلائق، وحلمتْ به، لكنها الأشجار وحدها التي فازت به أخيرًا.

شيء ما تحرّك في داخلها، حتى أنها نسيت الكاميرا والليل ومأزق البحث عن الصورة الضائعة؛ دخلت، حملت الكاميرا، تقلّبت ليديا في السرير، وأشرعت كاترينا عينيها ثم أغمضتهما ثانية. خرجت كريمة إلى ساحة البيت، ثبتت الكاميرا على العتبة، حيث كانت تجلس، تأمّلت المشهد، كان مذهلا بألوانه، وتمنت لو أن الإنسان يستطيع صناعة أفلام وكاميرات تستطيع التقاط الألوان.

حشرت رأسها في كيس الكاميرا الأسود. الألوان في رأسها. أخرجت رأسها، أدركت أن حاصل جمْع عينيها يفوق عين الكاميرا، إنه عين الكاميرا والألوان أيضًا، وما تريده من الصورة التي تتمنّى التقاطها.

كانت الأفكار تعصف برأسها، الألوان تعصف في رأسها، وكلما مرّ لون في ذاكرتها، أحست أن وجهها اصطبغ به. وتساءلت: ماذا لو كان باستطاعتي أن أترك الكاميرا في مكانها ثمانية أشهر، حتى أوائل الربيع، دون أن تتوقف عن التصوير، تصوير كل لحظة: الليل والنهار، عري الأشجار، العواصف، وحتى رنين أجراس الكنائس، آذان المساجد، صوت الطيور، والبشر العابرين أمام البوابات؟! أخذت نفسًا عميقًا، على طريقة والدها، وقد أدركت أن كل الأفلام الموجودة في الدنيا لن تكون كافية لمشروع جنونها هذا.

تواضعت أخيرًا، انحنتْ ووضعت ثلاث إشارات صغيرة تدل على موقع أرجل حامل الكاميرا، وقد اتخذت قرارها، في مثل هذا اليوم من كل شهر، بعد أن التقط الصورة الأولى التي أريدها، سأضع الكاميرا هنا تماما، وألتقط المشهد نفسه، إلى أن يأتي الربيع.

وعاد السؤال من جديد: ولكن ما الذي ستفعلينه غير ذلك طوال هذه الفترة؟!

حملت الكاميرا ودخلت.

كانت العائلة كلّها مستيقظة، خائفة من كل الاحتمالات الغامضة التي يخبئها اليوم السابع.

تجمّدت كريمة حين رأتهم، كان شعاع الشمس السّاقط على وجوههم من الشباك الشرقي لغرفة الطعام أخّاذًا، كانوا هم، وكانوا غيرهم، كانوا أجمل وأصفى، كالنهار في الخارج.

ارتبكوا حينما رأوها وقد تحوّلت إلى تمثال، لكن شيئًا ما في نظرتها كان مختلفًا، ثمة حياة في نظرتها لا يستطيع أن يجسدها مايكل أنجلو في أروع تماثيله.

- لا تتحركوا. أمرتْهم، كما لو أنها تشهر مسدسًا وتسطو على جمالهم، جمال لحظتهم، وجوههم التي لا مثيل لها.

وجّهتْ عين الكاميرا نحوهم، وأمرتهم ثانية: لا تتحركوا. كانوا مستعدين لأن يفعلوا أي شيء كي يرضوها.

حشرت رأسها في كيس الكاميرا الأسود، راحت قلوبهم تضخّ مزيدًا من الدم إلى وجوهم، وكذلك الشمس التي كانت ترتفع في الخارج، كما لو أنها تريد حشر رأسها داخل الشباك لتعرف ما يدور داخل الغرفة، أو لتكون الشخص الآخر الذي لم يعرفوا أن عليهم إحضار كرسي إضافي له.

تأمّلتهم كما تأمّلت الخريف في الخارج، والتقطت الصورة.

حملت الكاميرا بصمت، وسارت نحو الغرفة المظلمة، لتظهير أول صورها، في الوقت الذي غمر فيه الفرح وجوه الجميع، سعادة بما حدث. لكن الحذر كان هناك أيضًا بكامل صحوته المتحفّزة. هكذا، لم يتفوّهوا بأيّ كلمة، كان أفضل شيء يمكن أن يفعلوه هو أن ينتظروا إلى أن تخرج ويروها، يروا وجهها، وما يمكن أن تحمله بين يديها.

بعد نصف ساعة، أطلّت كريمة.

تأمّلتهم، وكم فوجئت أنهم تغيّروا، أنهم ليسوا أنفسهم كما كانوا قبل نصف ساعة. كانت الشمس قد فقدت اهتمامها وصعدت نحو السطح تاركة ملامحهم تحت ضوء أقلّ، وعذوبة أقلّ.

رفعت كريمة الصورة، ثم أدارت وجهها نحوهم.

أدركت أن عليها أن تقترب أكثر، ليروا ما رأته فيهم.

وصلتْ إلى أبيها، ناولته إياها.

أخذ نفسًا عميقًا، وكتم شهقة كالبكاء، وقال: لقد خلقنا الربُّ بشرًا، وها هي كريمة تحوِّلنا إلى ملائكة!

زجرته بربارا: لا يجوز أن تقول كلاما كهذا وأنت راعي كنيسة.

ناولها الصورة فشهقت مثله، لكنها كررت: رغم ذلك لا يجوز لك أن تقول كلاما كهذا!

ظلّت الصورة تدور إلى أن عادت ليدَي القس سعيد من جديد، تأمّلها ثانية، ثم أعادها إلى كريمة بلطف ورقّة شديدين، كما لو أنه يعيد طفلا إلى أمه بعد أن عمّده.

- أهي الصورة التي كنتِ تبحثين عنها يا نور العين؟! سألها والدها القس.

شدّت على كتفه برفق، وخرجت دون أن تقول شيئًا.

سوناتا الخريف!

أفضل ما حدث لكريمة، أنها أُهديت الكاميرا في الخريف، إذ كان أفضل فصل يمكن أن يجد المصوِّر نفسه، فيه، مع الكاميرا.

لم يكن الضوء وحده الذي استحوذ عليها، الضوء الذي لا ضوء يشبهه، إلا ضوء الغروب، وضوء الشروق، في لحظات خاطفة ما.

كل ما تعلّمته كريمة راح يتكثّف ببطء فيها، وهي التي ظنّت أن كل ما تعلمته سكبته في أوراق امتحانات السنة الأخيرة لها في المدرسة لتنال النجاح اللائق الذي يجعلها تستحق الكاميرا!

فجأة بدأت تشعر أنها في طريقها لأن تفهم العالم، بعد أن تخفّفت من إجاباتها الجاهزة التي كان عليها ترديدها كلما وجدت نفسها مع أسئلة امتحان.

غدت كريمة حرّة، بحيث بدأت تستعيد برفق كل ذلك الذي تعلّمته، ولم تكن تظنّ أنها تعلّمته من ذلك الجو الغني الذي ملأ البيت بالحوارات، حول الفن، والدِّين، والوطن، والأمثال الشعبية الفلسطينية التي يسافر والدها القس سعيد باحثًا عنها بغرض تأليف كتاب، أو تلك التي تصل إليه، عبر حوار يبدأ بسيطًا ثم يمنحه جوهرة لم يكن يتوقّعها، المثَل. فيُخرج دفتره الصغير ويكتبه، وحين ينتهي يطلب من محدثه أن يُعيد المثَل ثانية ليتأكد من أنه سجّله بشكل صحيح.

استعادت كريمة كل ما سمعته من موسيقى جوقة والدها. كانت كالأب بوتشر الذي استيقظ بعد منتصف الليل في ذلك الشتاء البعيد، وقد أيقظته الموسيقى السحريّة التي فاضت وغمرت كل ما حولها.

لكن لم تكن الموسيقى وحدها هي التي توقظها.

أكان على كريمة أن ترى الخريف وتفهمه، لتدرك أن في داخلها كريمةً أفضل من التي تعرفها؟!

همست لقلبها: في الخريف كل شيء؛ الحياة والموت، والجمال، والتجدّد، والضوء، لون الشمس، أجمل ألوان الشمس، التقاء ضوئها مع ما يشبهه تمامًا، الأوراق المصفرة المحمرّة الساقطة داخل البساتين والحدائق، أو تلك التي تحاول أن تتشرب أكبر قدر من ضوء الشمس، فوق الأغصان، قبل أن تسقط.

في ذلك المساء، جلست كريمة ساهمة وابتسامة غامضة تموج فوق شفتيها. راقبها القس سعيد، فبدا له أن إنسانًا ما وصل، أو في طريقه لأن يصل إلى سلامه الدّاخلي. وحينما جاء موعد العشاء، كانت ابتسامتها قد غدت أكثر وضوحًا، بحيث لم يستطع القس سعيد إلا أن يقول مخاطبًا الجميع.

ـ أظن أن كريمة اكتشفت أمرًا مهمًا. هل تعتقدون أنها ستخبرنا به؟

ـ ماذا؟ أجابت كريمة ووجهها ممتلئ بنور خاص.

أعاد والدها ما قاله، دون أن يرفع عينيه عن وجه كريمة التي كانت تجمِّع ابتسامتها بهدوء لتحوِّلها إلى كلمات.

ـ إذا أردتَ أن يفهم ابنك أو ابنتك العالم بشكل صحيح، وكان حلمه الحصول على كاميرا، فلا تهده، أو تهدِها إياها، إلّا في الخريف، قالت.

وكما لو أن السماء فتحت كل أبوابها فاندفع مطر غزير بلا توقف، انطلقت كريمة تتحدّث عن الحياة والموت والخريف والألوان، وحين انتهت كانت تلهث من شدّة انفعالها الفَرِح.

بألمانية يتقنها كأصحابها، قال القس سعيد معلّقًا: لو كنت أعرف أنك ستعرفين ما تريدين من هذه الحياة هكذا، لأحضرتُ لك الكاميرا في اليوم الأول لكِ على هذه الأرض، وقرأ:

Im Anbeginn

sprach das Pferd: Ich will Ebenen

Die Adler sprachen: Ich will die Gipfel der Berge

Und es sprachen die Schlangen: Ich will Höhlen

[2]Nur der Mensch konnte sich nicht entscheiden

* * *

تلك الليلة، ما إن أطفأت ليديا الضوء، حتى انكمشت ابتسامة كريمة، وغدت ضيقة كالليل نفسه، الليل الشاسع ولكنه الضيق لأن كل جزء منه هو الليل كله.

لم تعرف لماذا قفزت صورة أخيها الصغير، نجيب، الذي مات طفلا فجأة، لم تعرف لماذا قفزت صورة جدها لأبيها الذي رحل عن سبعة وأربعين عامًا، أعادت طرح السؤال هامسة، السؤال الذي لا تكفّ عن طرحه كصرخة: ولكن لماذا يموتون صغارًا؟!

عمّها المعلم سليمان كان يجيبها دائما: ليس ميتًا ذلك الذي يعيش في قلوب أحبائه كما يعيش الوالد في قلوبنا.

نامت كريمة أخيرًا وحينما استيقظت، مضت إلى الكاميرا، حملتْها وخرجت وهي تفكر: خريف الموت الذي يؤرّقها في الليل، غير ذلك الخريف الذي تحبّه ويفتنها في النهار.

بلاد العدوّ!

بمجرد وصولهم، أطلق الإنجليز على فلسطين اسم (بلاد العدو المحتلّة)، ووزّعت قوات الجنرال اللنبي منشورًا عسكريًّا: (على جميع سكان البلاد التي كانت سابقًا تحت حكم الأتراك والتي يحتلّها الآن الجنود تحت قيادتي، أن يمتنعوا عن كل عمل من شأنه إقلاق الراحة العمومية أو مساعدة أعداء جلالته أو أعداء حلفائه..)

أطبق الإنجليز على بيت لحم، وأقاموا معسكرًا في ساحة كنيسة المهد. ومعهم، جاء برْد لم تعرفه المدينة من قبل، برْد، قال بعض الظرفاء إن الإنجليز أحضروه معهم من لندن، بلد الضباب! لكن أولئك الذي وقعوا أسرى ومعتقلين في يد القوات الإنجليزية، لم يكن الضحك، لم يكن، حتى الابتسام جزءًا من لياليهم، حيث حُشِروا في العراء، وسط الليل طويلا، كما لو أن القوات الغازية قد قررت استخدام الطبيعة نفسها، وسيلة لتعذيبهم.

كريم، الذي أتمّ العشرين من عمره قبل وصول الإنجليز، وجد نفسه في قبضة برْد لا يرحم، وقد ساقه الجنود، بعد أن عثروا في جيبه على كتاب بالألمانية، لم يكن غير كتاب (آلام فارتر) لغوته.

كريم، الشاب النحيل، الأنيق، صاحب الشاربين الأسودين، والشعر المُسرَّح بإتقان، رغم انحساره عن رأسه، الشعر الذي يُنذر بصلع متوارث عن الأب والأعمام، وربما عن الجدّ الذي فارق العالم مبكرًا، كريم، وجد نفسه أمام الحاجز البريطاني قرب قبر راحيل، وجهًا لوجه مع الجنود.

لم يستطع التراجع، ولم يخطر بباله أن (آلام فارتر) ستغدو بعد قليل آلامه، وسيرثها، مثلما هيَّأته الطبيعة لأن يرث النّحول والصَّلع.

حدّق الجندي البريطاني في هويته، وكان على وشك أن يسمح له بمواصلة الطريق، لكن جنديًّا آخر لمح ذلك الانتفاخ في جيب معطف كريم. بسرعة أشهر بندقيته، وأمره أن يرفع يديه.

ارتبك كريم. في تلك اللحظة تذكر آلام فارتر. شقّت قلبه عاصفة ألم مباغتة. أدرك أنه وقع في الفخ، أوقع نفسه في الفخ. تقدّم الجندي الأول خطوة، وبحذر جسَّ ذلك الجسم الصلب في جيب معطف كريم. لم يكن لديه أدنى شك في أنه يحملُ مسدسًا، وفكر الآخر بسرعة: هل يُطلق عليه النار؟ أم يفتشه أولا؟! طلقة أخرى في حرب أُطلِقتْ فيها مليارات الطلقات، وملايين القذائف لن تزيد الأمر سوءًا، أيًّا كان القتيل! هكذا فكَّر؛ حرب بدأت باغتيال ولي عهد النمسا وسقط فيها تسعة ملايين قتيل، لن تزداد أهميتها، أو تقلّ، بمقتل عربيّ في مدينة تسمّى بيت لحم.

الجندي الأول، كان أسرع من أفكار زميله؛ امتدّت يده بسرعة، مستغلا خوف الشّاب الذي يرفع يديه إلى الأعلى، واستطاع في لحظة خاطفة أن يُخرج الكتاب.

أحسّ الجندي الثاني أن الفرصة قد ضاعت، وأن العربيّ نجا، وقد كان يُمنّي نفسه بقتل عربي، أوَليس العرب هم حلفاء أعداء بلده، الأتراك، وهم من قاتلوه طويلا وقتلوا رفاقه الجنود على جبهة غزة، قبل انهيارها.

اختطف الجندي الغاضب الكتاب، فتحه بيد واحدة، وهو ممسك ببندقيته باليد الأخرى، وصاح: جاسوس ألماني. فاندفع الجنود مشرعين بنادقهم.

في تلك اللحظة أدرك كريم أنه ميت.

لكن أحدًا لم يُطلق النار، وقد رأوا يدَي الأسير مرفوعتين عاليًا، أعلى من لحظات خوفه. كريم الذي رفعهما لكي يراه من لم يره، بعدُ، من الجنود.

ـ من أنت؟

ـ أنا كريم ابن القس سعيد، راعي الكنيسة الإنجيلية اللوثرية.

* * *

في كلّ ثكنة عسكرية، وفي كل غرفة تحقيق، كان السؤال يتردّد، والإجابة تتردّد، وكان الشكّ يتّسع ويكبر، فتاريخ العلاقة التي تربط أبيه بالألمان طويلة، وإن كانت العلاقة قد تركّزت دائما في مجالَي التعليم، مدرسة شنللر، والدِّين.

في ليالي منطقة بحيرة الحولة، في الشمال الفلسطيني، أمضى كريم أسوأ أيام حياته؛ اقتيد للتحقيق معه، ومعرفة أسرار علاقته بالألمان. في وقت ذهبت كلّ محاولات القس سعيد لإطلاق سراحه هباء. حتى أن الحاكم العسكري للمدينة صرخ في وجهه: إن لم تتوقّف عن محاولة إطلاق سراح هذا الجاسوس، سأضعك إلى جانبه. حتى الآن هنالك شيء واحد يمنعني من هذا، أن لك طائفة هنا، ولا أريد أن أبدأ وجودي هنا بمعركة مع طائفة. لا توسّع المشكلة، دعْها محصورة كما هي، في حدود قضية جاسوس قبضنا عليه مُتلبّسا!

* * *

لم تجد القوات التي تقود الأسرى في تلك المنطقة من سجن لهم، أفضل من أن تأمرهم بالوقوف وسط مستنقعات منطقة بحيرة الحوْلة، بأرجل مزروعة في الطين، وقامات تتأرجح كالقصب في ليالي البرد القاسية.

كان الدفء الوحيد الذي يمرّ على أجسادهم، أو يتوهمونه، هو ضوء الكشافات الضخمة، التي كانت تمشّط سطوح المستنقعات، لكي يتأكّد الجنود أنّ من زرعوهم في ذلك الماء الموحل الآسن، ما زالوا هناك.

أما الأسرى، من أتراك وعرب، فكان كل واحد منهم ينتظر تلك اللحظة الثمينة، التي لا تُقدّر بثمن، لحظة سقوط الضوء على أجسادهم، ملامسته لهم، وهم يتمنّون أن تتوقّف يدا الجندي لحظات أُخر، ليتأكد أكثر من أنهم ما زالوا هناك، أن يحصي عددهم مرّة أخرى وأخرى. لكن الجندي الذي ينعم بحرارة الكشاف بين يديه، لم يكن يفكّر فيما يمكن أن يعنيه الضوء لأولئك الذين في المستنقع.

* * *

ما إن تغرب الشمس حتى تستدير البنادق نحوهم، تأمرهم بصمت أن ينزلوا إلى المستنقعات، كل تلك الليالي كانت كفيلة بأن تختطف أعمارهم وهم يقفون كالحزمة ملتصقين بعضهم ببعض،

محاولة منهم لاقتسام أغلى ما يملكونه: دفء أجسادهم.

في تلك الليالي التي كان يموت فيها أحدهم، كانوا يحسّون بالبرد أكثر، ببرد جسده، لكنهم يواصلون التصاقهم، فلعل النهار يُكذِّبهم، لكن النهار لم يكن يفعل، دائما كان يؤكد شكوكهم، حين يبتعدون عن بعضهم، ويرون جسدًا متيبسًا مغروسًا في الماء كجذع ميت.

أمام كنيسة المهد

دسّت كريمة رأسها في الكيس الأسود، ارتبكتْ، وكأنها فوجئت بأفعى داخله، كيف لم تر الجنود البريطانيين خلف أكياس الرّمل؟ كيف لم ترَ سياراتهم المصطفّة؟ تجمّدت، كان هنالك خمسة جنود خلف متراس الأكياس الرّملية الذي يُغلق الساحة المؤدِّية إلى بوابة كنيسة المهد، وعلى بعد خمسة أمتار منه متراس آخر، وكانت هناك عشرون سيارة عسكرية متوقّفة في فناء الكنيسة.

سحبت رأسها بسرعة، أحست به يرتطم بشيء ما. حدّقت؛ كيف لم ترَ ذلك كله قبل أن تحشر رأسها ثانية في ظلام الكيس.

جاءها الصوت من بعيد: اذهبي من هنا.

لكنها لم تسمعه في تلك العتمة.

وعاد الصوت يدوي أكثر: لقد قلت لك، اذهبي من هنا.

تأكدت أن الكلام موجّه إليها حينما رأت جنديًّا، يقف رأسًا على عقب، يلوّح بيده الممسكة بالبندقية كوعيد.

أخرجت رأسها.

عاد الجندي إلى وضعه الطبيعيّ، وكرّر الأمر ثالثة.

- ابتعدي من هنا.

- بل أنت الذي عليك أن تبتعد منها، ليس فقط لكي تكون الصورة جيدة!

- ماذا تعنين؟

- أنت الذي عليك أن تبتعد من هنا، هذه ليست بلادك.

أخذتْ نفسًا عميقًا، ثم عادت ثانية إلى بحر ذلك الظلام، وفجأة ابتسمت، حين رأت رؤوس الجنود إلى الأسفل، وعجلات سياراتهم في الأعلى.

التقطتِ الصورة بسرعة، وابتعدت.

ظَهَّرَتْها، تأمّلتها بغضب، امتدّت يدها إلى دبوس، غرسته فيها. كانت أقدام الجنود إلى الأعلى، كما كانوا هناك، ورؤوسهم إلى أسفل.

غيابُ العائد!

بعد خمسة أسابيع من اعتقاله، عاد كريم شخصًا آخر، بدا ضامرًا كشاب مُصاب بالشّلل منذ مولده، حتى أن أخواته، كريمة وكاترينا وليديا، كنّ يحملْنه من سرير إلى آخر، كلما أرَدْنَ ترتيب فِراشه وتغيير شراشفه.

في النهار، كان كريم يصمتُ، مخبئًا أوجاعه، كما يخبئ اللحافُ نحولَ ساعديه وساقيه، وما إن يهبط الليل، حتى يبدأ عذابه؛ سعال لا يتوقف، وآلام في كل خلاياه.

لو كان للألم أن يختار مكانًا يسكن فيه، لما وجد مكانًا يلائمه أفضل من ذلك الجسد.

يهزّ البيت بصيحاته المجروحة، إلى تلك الدّرجة التي يحسّ فيها القس سعيد بذبذبات جرس الكنيسة، الذبذبات التي تسري في جسده قشعريرةً حارقة. القس سعيد الذي بدأ يحس بأن الموت يطارد أولاده، فبعد أن أخذ نجيب، ها هو يحاول أن يأخذ كريم، بعد أن أمسك بيد منصور، وساقه إلى مستشفى الأمراض العقلية، بعد سقوطه من الجرسية أثناء صعوده لقرْع الجرس، فلا هو ميت، ولا هو حيّ.

* * *

حين رأى القس سعيد ابنه يركض نحو الجرسية في ذلك اليوم، ناداه، طالبًا منه، كما في كل مرة، أن لا يصعد. لم يكن هنالك أيامها حبْلٌ يتدلّى من الجرس ويصل الأرض، ليهزّه من يريد قرْع الجرس دون أن يكون مضطرًّا لصعود جرسية ارتفاعها ثلاثون مترًا، يراها عن بُعد القادم من القدس، أو من بيت ساحور، من بيت جالا.

تجاهل منصور صوت أبيه وصعد. طفلا كان، لا يملك وسيلة لَـهْوٍ أجمل من تلك: صعودُ الدّرج الحلزوني للجرسية، الوصولُ لاهثًا، تأمُّلُ العالم من نوافذها المستطيلة، انتظار ساعة الجرسية أن تدقّ، الساعة التي تضبط بيت لحم زمنها، ليلا ونهارًا عليها.

قبل أن يصل منصور إلى الأعلى، زلَّت قدمه، ترنّح، وسقط. ومع سقوطه تغيّر عالم الأسرة، أصبحت بربارا أكثر عصبية مما كانت عليه من قبل، وأكثر تشدُّدًا، كما لو أن زوجها، وربّ أسرتها ليس هو قس الطائفة، الرجل الطيب الذي يحبها، ويحبّ أبناءه وبناته.

لم يخرج منصور من سقطته التي خلّفت له تشوها في الظهر لم يستطع الأطباء علاجه، وضررًا بالغًا في الرّأس، نقله من عالم الفرح إلى عالم الجنون.

حين نقلوه إلى مستشفى الأمراض العقلية، ليستقرّ فيه، وليواصل حياةً مُظلمة لا لـهْوَ فيها ولا حياة، أحست الأسرة أن الموت أخذه، ولكنه لم يبتعد به هذه المرّة كثيرًا، بحيث يمضي به إلى السماء، بل تركه ميتًا على بُعد دقائق منهم.

* * *

لم يكن كريم أفضل حالا، ولم يعرف الأب، الأب الذي أصيب للمرة الثالثة في صميم قلبه بهذا البلاء، أين سيكون موقع كريم، هل سيلحق بالصغير نجيب، أم ستحرقُ الحُمّى دماغه، فيمضي به ليكون بجانب أخيه في المستشفى، دون أن يستطيع أي منهما أن يتعرّف إلى الآخر، أم أن كريم سيعيش حياته متأرجحًا بين مصير نجيب ومصير منصور.

- إنه السّلُّ، قال الأطباء الذين حضر بعضهم من القدس، وبعضهم من حيفا ويافا.

هكذا اكتشف القس سعيد أن ابنه سيعيش ميتًا في البيت، لا السماء فتحت أبوابها له، ولا رحابة الأرض.

جُنّت بربارا، صرخت، بكت، طرقت صدر القس سعيد، كما لو أنه باب نجاةٍ، ركضت بين غرف البيت، إلى آخر الحديقة، وحين سمعت محرّك سيارة تقترب، انحنت، وأمسكت بحجر، ركضت نحو الباب؛ كانت السيارة قد تجاوزته، لكنها لم تزل في مدى قوة ذراعها، صرخت: هذا

من أجل كريم. حلّق الحجر وارتطم بقوة بالسيارة. توقّفت بسرعة، نزل الجنود البريطانيون الخمسة منها، مُشهرين أسلحتهم، لكن أحدًا لم يكن هناك.

* * *

كريمة التي كانت قد غدت مُدرِّسة، قررت أن تترك التدريس في ذلك الزّمن الليلي، المحاط بصرخات الألم وصرخات الغضب، بعد سنة اكتشفت فيها أن التدريس هو آخر مهنة تصلح لها. قررت أن تتفرّغ للتصوير. وهذا ما كان ينقصُ الأم، لتصرخ في وجهها: ستكونين السبب في موتِ كريم! فتاة، وتعمل مُصوِّرة! هل رأيت فتاة تعمل مصوِّرة من قبل؟!

- لا، أجابت كريمة.

أما القسّ سعيد فقد كان يفكر في شيء واحد لا غير؛ أن تبتعد بناته عن أجواء الموت تلك، وبأي وسيلة.

- يكفيها ما فيها، قالت كريمة لأبيها، لن أكون السبب في زيادة عذاب أمي أكثر. ورفعت رأسها، فرأته يهزّ رأسه، أحسّته قد كبر كثيرًا، ولو التقطت له صورة، في تلك اللحظات، لما عرف نفسه في الصباح. وهيئ لها أنها سمعتْه يقول شيئا.

- هل قلتَ شيئا؟ سألته.

- بل هززت رأسي.

- سمعتني إذا؟ وتوافقني على ما سأقوم به.

عاد يهزّ رأسه من جديد.

- موافق إذًا؟

- أبدًا.

- ولكنك هززتَ رأسك.

- هذا لا يكفي. ألم أقل لكِ حين طلبتِ الكاميرا إذا ما أردتِ شيئا فإن عليك أن تكوني أكثر جرأةً لتناليه.

- لقد كنتُ جريئة بحيث قلت ما أريد قوله، سأترك كلّ شيء.

- بل قلتِ ما لا تريدين قوله يا كريمة، قلتِ شيئًا تريدين أن تُرضي به أمك وتخوني نفسك. لقد وهبك الربّ عزيمة وموهبة، لكي تكوني أول فتاة تشق دربًا جديدًا كأول مصورة في فلسطين كلها، وربما، في بلاد العرب جميعها، وتريدين أن تقولي للربّ، وليغفر لي: لا أريد العزيمة التي منحتَني إياها ولا هذه الموهبة؟!

- ولكنها في النهاية صوَر، إن لم ألتقطها أنا سيلتقطها غيري.

- كنت أعتقد أنكِ أذكى من أن تقولي كلامًا كهذا، لأن الصورة التي التقطتِها لنا، صورتكِ الأولى، في ذلك الصباح، ما كان باستطاعة أحد أن يلتقطها سواكِ. أما صورة الجنود الإنجليز الذين يُغلقون مدخل المهْد ببنادقهم وعرباتهم العسكرية، حتى هذه اللحظة، فقد كان يمكن أن يلتقطها غيرك فعلا، لكن أحدًا منهم لن يستطيع أن يعلِّقها كما علقتِها أنتِ. منذ ذلك اليوم وأنا أتساءل: هل رأتْ كريمة ما لم نستطع رؤيته؟ فكّري في الأمر قليلا يا كريمة، صحيح أنني لا أستطيع أن أنفي أن هناك غضبا شديدا في تعليقك للصورة مقلوبة، احتجاجًا على اعتقال أخيك، ومرضه، ولكن الأمر أكبر من ذلك، فقد كنتِ تدركين بحدسك أن الأمور لن تتوقف عند لحظة الاعتقال، بل إن شيئًا كبيرًا سيحدث له، ولذا يمكن أن أقول لكِ الآن ما أحسستِ به، ولم تتوصّلي للكلمات التي تشرحه، وهو أن وضع هذه البلاد سيتغيّر بسبب هؤلاء الجنود. من يتجرأ ويُغلق الباب المؤدي إلى مكان عبادة، الباب المؤدي إلى السماء، سيفعل كل شيء لإغلاق أبواب الدنيا أمام هذه البلاد، أمام البشر. شيء واحد أريده منك، أن تنامي الليلة، كما أردتِ، متردّدةً، خائفةً، فاقدةً إيمانك بنفسك، ولكن حين تنهضين غدًا أريد أن أرى كريمة واحدة، كريمة التي أعرفها، نور العين، لا ظلمتها.

إمبراطورية الظلام

تزايدت الصيحاتُ في الليل، ليل ذلك الشتاء القاسي، الذي لم يروا مثله، ولكنها كانت تأتي من غرفة القسّ سعيد وامرأته، لا من غرفة كريم وحده.

أحسّ كريم بذلك، فتلاشى سعاله فجأة، كما لو أنه حشر في حنجرته جذعًا يابسًا، من تلك التي يستخدمونها للتدفئة.

لم تنتبه أمّه، بربارا، لذلك، إلا بعد أيام، فقد كانت صرخات ألمه مستمرة، تدوي في أذنيها دون توقف. القسّ سعيد هزّها:

- بربارا، الولد تحسنت أحواله، وأنت ما زلت تصيحين.

في الخارج كانت الريح تهزّ شجرات الصنوبر بعنف، وسعف النخلة الوحيدة.

- إنني أسمعه، أسمع صراخه، كيف لا تسمع ألما كهذا؟

- كريم تحسّن يا بربارا، فقط أنصتي قليلا.

لم تقتنع، كانت الصرخات تزداد علوًّا.

أمسكها من يدها، ففهمت أن عليها أن تتبعه. بصعوبة نهضت، خائفة، كأنه سيلقي بها في قلب جحيم ذلك الصراخ. وحين سار يشقّ طريقه في الممرّ نحو الغرف، كانت تحسّ بالصراخ يتصاعد أكثر فأكثر.

تجمّدت في مكانها:

- لن أتقدّم خطوة واحدة.

- بل سنمضي إلى غرفته لكي تتأكّدي من أنه بخير.

وسارت. غلبها الأمل أكثر مما جمّدها الخوف.

لكن الريح في الخارج كانت تشتدّ، وعزيمة القس سعيد تشتدّ، كان على يقين من أنها إن بقيت هكذا ستجنّ، وستلتحق بمنصور، نزيلةً أخرى لمستشفى الأمراض العقلية. بربارا

وصلا الباب، وقبل أن تمتدّ يد القس سعيد لتفتحه، تلاشت كل الأصوات، صوت الريح، أغصانها التي ينقضّ واحدها على الآخر، على كل ما جاوره، على الحيطان؛ الأغصان الباحثة عن ملجأ في أعالي تلك التلة التي لا يفصل بينها وبين الأفق شيء تختبئ خلفه.

نظرت بربارا إلى القس سعيد بفزع، كما لو أنها كانت تملك عقلا وفقدته في لحظة. لم تكن تسمع شيئًا.

فتح القس سعيد الباب، دخل، كان الفانوس الذي خفّضت كريمة قوة شعلته، ينير الزاوية اليمنى جوار سرير كريم، ولم يكن المشهد، بالسلام الهابط عليه كقبس من نور، إلا جزءا من ذاكرتها القديمة، حينما كانت تتفقّده في طفولته، كما تفقّدت أخويه وأخواته.

لكنها لم تكن تصدّق ما تراه.

لم تكن تصدّق ما تسمعه.

سحبها القس سعيد من يدها، وخرج مُغلقًا الباب خلفه بهدوء.

في تلك اللحظة، سمع هو، تلك السعلة المكتومة خلفه، سمعها بوضوح، فأدرك أن كريم يحاول كتْمها منذ أن غابت الشمس.

لكن بربارا لم تسمعها، أصبح الصمت هو الشيء الوحيد الذي تسمعه، الذي تسكن فيه.

وقبل أن يصلا باب غرفتهما، سمع القس سعيد سعلةً أخرى، عرف أنها أشدّ من الأولى، ما دامت استطاعت أن تخترق الباب والممرّ وصوت الرياح في الخارج وجنون الأغصان. فوجد نفسه

يردّد: ليلعنِ الربُّ الإنجليزَ واليومَ الذي وصل فيه الإنجليز إلى فلسطين، بل إلى أي مكان في العالم. وتزايد غضبه، فهمس لنفسه: الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس؟! إنها الإمبراطورية التي لا ترى الشمس حتى في عاصمتها، ولا تحمل للبشر حيثما وصلت أقدام جنودها إلّا الظلام. كان الأحرى أن يسموها الإمبراطورية التي لا ينقشع عنها الظلام.

دائما هنالك أكثر من شمس

لم تعرف كريمة إن كان والدها الذي دفعها للخروج لممارسة أقرب شيء إلى قلبها، وإصراره أن يسير معها إلى الباب، وأن يلوّح لها في ذلك اليوم الشتائي المشمس، لم تعرف، حين استدارت ورأته متكئا على حافة الباب، ثم حين استدارت ثانية ورأت الباب مُشرعًا، لم تعرف إن كان يقول لها إنني في انتظارك، أم يشير إلى أبواب لا حصر لها ستُشرع أمامها كما لم يحدث مع أيّ مصوّرٍ قبْلها.

كانت قد هيأت كل شيء يلزمها، ولم يكن هناك أهم من شراء كاميرا تليق بالتصوير كمهنة، تليق بها كمصورة أولى في البلاد. سألت، وحين أجمع من تعرفهم من المصورين على أن كاميرا من نوع Premo هي الأفضل لها، ذهبت إلى حيفا، أوصت عليها، دفعت ثمنها، وبعد شهر وصلتْها إلى باب دارها في بيت لحم.

* * *

في فترة قياسية، بدأ صيت كريمة ينتشر، والناس يطلبونها لكي تلتقط لهم الصّور في بيوتهم، حتى أولئك الذين اختلفوا حول الصّور الشخصية إن كانت حلالا أم حرامًا، ووصل الأمر ببعضهم أن يعتبر الصورة رجسًا من عمل الشيطان، جرفتهم الرغبة لأن يظلّوا حاضرين بصورهم، هم الذين يعرفون أن ذاكرة الكاميرا، في مجال احتفاظها بملامح البشر، أقوى من ذاكراتهم، وذاكرات محبيّهم. لم يعودوا قادرين على مقاومة هذا السحر، أو مقاومة حاجتهم إليه. جرفهم حلمهم أن يظلوا حاضرين مهما حدث، سواء رحلوا للبعيد أو اختطفهم الموت. جرفتهم تلك القدرة التي تمتلكها الصورة في أن تُبقي أطفالهم أطفالا، وهذا ما تحنّ له قلوبهم كلما رأى أحدهم أبناءه قد كبروا، أو تبقيهم، هم، شبابًا، كما لو أن الزمن لم يستطع النَّيل من تألّقهم.

.. لا شيء يمكن أن يكون مدهشًا ومغريًا كالصورة الأولى.

لم تكن كريمة بعيدة عن تلك الأحاسيس، فهي التي استطاعت، حينما أخفت تلك الصّورة، واعتبرتها مُلكًا خاصًا لها، أن تحتفظ بلحظة لا تتنازل عنها مقابل أي شيء في الدنيا، اللحظة التي كانت تقبض فيها على يد أخيها نجيب.

لكنها كانت خائفة أيضًا، خائفة من ذلك العدد الكبير من أساتذة التصوير الذين يتسابق الناس إلى أستديوهاتهم في كل مدينة فلسطينية، من عكا وحيفا والناصرة حتى نابلس والقدس والخليل وغزة.

وكلما كانت قناعتها تهتزّ، كانت تتذكّر تلك الجملة التي قالها أبوها، حينما التقطت أول صورها، صورة العائلة في ذلك الصباح: لقد خلقَنا الله بشرًا وحوَّلتنا كريمة إلى ملائكة!

عادت كريمة تفكّر من جديد في الشمس، وعلى مدى العام التالي لتفرُّغها للتصوير، وصلت إلى الحقيقة التي ستُغيّر كل حياتها كمصورة: لقد كانت هناك دائما أكثر من شمس، لكن ليس باستطاعة كل إنسان أن يدرك هذا، ليس باستطاعة كلّ مصور أن يدرك هذا.

كانت قد بدأت تلاحظ ما تتركه شمس الصباح من أثر في الصورة، شمس الضحى، شمس الظهيرة، العصر، الغروب، شمس الربيع، الصيف، الخريف، الشتاء.

أدركت كريمة أن لكل صورة شمسها الخاصة، وأن لكل مصوّر شموسه الخاصة به، بعينيه.

بدأت تنتبه لما تتركه الثياب من انعكاسات ألوان، من أثر في الصّور، لون الثياب، الجدران، الكنبات، الكراسي، اللوحات المعلّقة، الستائر، الشبابيك، الزوايا، الأرضيات، السّقوف.

كان يفرحها أن كلّ من صوّرتهم كانوا فرحين بصورهم، لكن أمرًا محزنًا كان يُشغلها: مَن سيلتقط لها الصّورة التي تتمنّاها لنفسها؟

في الرابعة والعشرين من عمرها، كانت كريمة تحسّ، أن وقوفها المستمر خلف الكاميرا سببه أن لا مكان لها أمامها! فأمام الكاميرا كانت الحياة كلها، الأطفال، الزوجات، الأزواج، الجمال الواثق من أنه يستحق الصورةَ التي سوف تُلتقط له!

ذات يوم، وقف القسّ سعيد يتأمل الصور التي التقطتها لعدد من الأُسر في مدينة بيت لحم، كان يهزّ رأسه بإعجاب شديد، كما لو أن الصّور التي التقطتها كريمة، هي أول صور يلتقطها إنسان لإثبات معجزة تلك الآلة العجيبة، التي كان يسمّيها الذاكرة/ النّعمة التي لم تُوهب للعين، ولكن العقل عوّض عن ذلك واخترعها، كي لا تتحول العين إلى بئر مظلمة كلما فقدت شخصًا تحبّه.

- لماذا أنت حزينة؟ أنت تعرفين أن أفضل المصوّرين، من توفيق خليل باسيل، حتى يوسف البواريشي، والمصورين الضيوف من كل أوروبا معجبون بصورك، بل ويحسدونك، لأنك تلتقطين الصّور التي يحلمون بالتقاطها، وقد فُتحتْ أمامك كلّ أبواب البيوت، وأُغلق أكثرها في وجوههم.

لم تعلّق كريمة في ذلك اليوم، بل اكتفت بأن هزّت رأسها، لكنها انتبهت لذلك، حتى قبل أن يقول لها القس سعيد:

- وبعدين؟! ألم نتفق على أنك إذا ما أردتِ شيئا فإن عليك أن تكوني أكثر جرأة لتناليه؟!

ابتسمت كريمة، فعلّق:

- على أيّ حال أنا لا أستهين بالابتسامة في موقف كهذا، ففي أحيان كثيرة تكون أقوى من الكلمات.

لم يخْفَ على القس سعيد أنها لم تكن الابتسامة التي تمنّى وجودها على شفتَي ابنته الدقيقتين، الشاحبتين دائما؛ لكنه رضيَ بها، رغم مسحة من حزن ضبابي خفيّة اختطفت معناها.

حين تحرّك القس سعيد، كانت كريمة لم تزل تنظر إلى صورها التي نالت إعجابه. توقّف، استدار نحوها:

- لم يزل لديك شيء لم تقوليه لي.

- بما أنني أحسّ أن الكاميرا باتت مصيري في هذه الحياة، فأظن أن عليك أن تحتمل ما سأطلبه من أجل ألّا أفترق عنها.

- وما الذي يمكن أن يساعد على أن تواصِلا دربكما معًا؟

- شيء يحمِلُنا، لأن الطريق أمامنا سيكون طويلا، أطول مما كنت اعتقد. أظنني بحاجة لأن أشترى سيارة.

- سيارة؟! ظهرت كاترينا أمامهما فجأة، كما لو أنها سقطتْ من السماء، وأضافت: هذا أفضل شيء يمكن أن تفعليه في حياتك.

صمت القس سعيد، وبعد برهة أضاف:

- وهل تتخيلين أثرَ خبر كهذا على أمّك؟

انكمشت ابتسامة كاترينا، وأوشكت كريمة أن تهزّ رأسها، لكن عينَي أبيها راحتا تحدّقان فيها مباشرة، فمنعتاها من ذلك.

سرعة الملهوف

ـ أمّكِ! أعرفها، للأسف إذا أردتِ إقناعها بشيء، فإن عليك ألّا تستشيريها في الأمر، عليك أن تكوني قد أنجزته. عندها ستقتنع! قال القسّ سعيد لكريمة.

* * *

بسرعة قياسيّة، سرعة الملهوف، المحتاج، تعلّمت كريمة قيادة السيارات، على يد مدرب في بيت لحم. لكن اللهفة والحاجة لم تكونا وحدهما السبب وراء تلك السرعة.

لم يكن تعلُّم ابنة القس القيادة مسألة عابرة، في مدينة صغيرة.

صباحًا استيقظتْ، أبكر من المعتاد، الرّبيع يتقدّم خطوة خطوة، على مهَل، والأعشاب والأزهار تطلّ برأسها من التراب، مثل جراء ثعلب صغيرة على وشك مغادرة الوجار للمرة الأولى.

سارت كريمة مائة خطوة باتجاه كنيسة المهد. محاذِرة أن لا تراها أمّها في ذلك الصباح الذي لم تنقصه الشمس ليرى المرء فيه أصغر مخلوقات الله تدبّ على الأرض، أو تحوم في السماء.

جلست خلف المقود، وقبل أن تُعدِّل جلستها، كان ربع سكان بيت لحم قد رأوها. وحين سارت السيارة نحو قلب المدينة، كان ربع سكان المدينة الآخر قد رأوها. تجوّلت، فرآها الربع الثالث ومعه الجنود الإنجليز الذين لوّح لها بعضهم ببندقيته، وحين عادت بعد ساعة للنقطة التي تحرّكت منها، كان سكان بيت لحم، وكثير من سكان أطرافها، ونصف زوّار المدينة قد رأوها،

وهكذا ما إن وصلت إلى باب بيتها حتى كانت أمها بربارا في انتظارها. الشّرر يتطاير من عينيها، وأصابعها تطحن طرَفي الباب الخشبيين.

كان الموقف سيغدو أقلّ حدّة، لو أن حالة كريم لم تنتكس في ذلك الأسبوع؛ انتكاسة صحته، زعزعت الأم، وزرعت التوتّر في جسدها كله، وبخاصة عينيها اللتين كانتا تدوران في محجريهما تقلّبان الأرض والسماء بحثًا عن سبب للبلاء الذي أصابها؛ حين اختطف الموت أحد أولادها، واختطف الجنون الثاني، وانقضّ المرض على جسد كريم، الذي بات وحيدها مع أنها أنجبت ثلاثة.

- ستكونين السبب في موت أخيكِ، انطفاء زهرة شبابه، يُتْم قلبي وروحي، ونزول غضب الرّب على هذا البيت.

لم تتكلّم كريمة، تركت أمها تقول كلّ ما في قلبها، وحينما انتهت الأم، كان البكاء الصامت قد أغرق صدر فستان كريمة، الفستان السماوي الذي تُزيّنه ورود أقحوانية صغيرة بيضاء، وتُخفي أكمامه كنزة صوفيّة كحليّة.

أدركت الأم أن كريمة استطاعت حسم الجولة الأولى من المعركة التي لا مثيل لها، لصالحها. تراجعتْ، انسحبت للداخل تاركة كريمة في مهبّ ريح خفيفة، ومهبّ عشرات العيون المتلهّفة، في انتظار نهاية المعركة، المعركة التي إن تحسمها بربارا، فإنها ستندلع في كل بيت فيه فتاة بعمر كريمة في مدينة بيت لحم وجوارها! ووصل الأمر بأولئك الذين لم يروا من قبل فتاة تقود سيارة في فلسطين إلى القول: إذا انتصرتْ كريمة فإنها ستقلبُ البلد فوق رؤوس جميع الأمهات والآباء!

* * *

في ذلك الليل، كان الحديث الوحيد في معظم بيوت المدينة حول ذلك المشهد المباغت كزلزال؛ وانقسم الناس؛ كانت كل فتاة تتمتّع بشيء من القوّة أو بشيء من الدّلال! قادرة على أن تقول ما في قلبها غير عابئة بشيء، فقد تحدّثن عن حقّ الفتاة في قيادة السيارة، وامتلاك السيارة. أمّا من لم يمتلكن جرأة النقاش، أو جرأة التفكير في قيادة سيارة، فتابعن الحوار بصمت، وشيء ما في داخلهنّ يتمنّى أن تنتصر كريمة، بعد أن شاع خبر معركتها مع أمّها.

حين استيقظت المدينة في صباح اليوم التالي باكرًا، كان لهذا النشاط سبب واحد: أن يرى الناس نتائج معركة الليل التي دارت رحاها في بيت القسّ سعيد، والتي وصلتْهم بعض شراراتها.

خلف الشبابيك كانت الأعين تنتظر، وحين تأخّر خروج كريمة من البيت، عصف حزنٌ عميق بقلوب الفتيات اللواتي رأين في كريمة المثال الأجرأ، في حين كانت أعين كثير من الآباء والأمهات فرحة باختفائها، رغم عدم قناعة الكثيرين بموقفهم، لإدراكهم أن الحياة واصلت طريقها دائما، دون أن تكون مضطرّة لانتظار أحد، لا لشيء إلا لأن الحياة ليست قطارًا أو حافلة أو عربة تجرّها الخيول، إنها الزمن الذي عليك أن تقفز فوق صهوته وهو ينطلق بسرعة لا يحسّ بها إلّا أولئك الذين يدركون قيمة الحياة نفسها.

تصاعدت دقّات الثامنة والنصف، التي أعلنتها ساعة جرس الكنيسة اللوثرية. خطت كريمة خارج البيت، لكن، كان عليها أن تسير مائة خطوة، كالتي سارتها صباح أمس، لتلتقي مُدرِّبها في سيارته، كما اتفقت معه.

عمّت البهجة قلوب الفتيات المجاورات للكنيسة، اللواتي رُحْن يُصفّقن حين مرّت كريمة بجانب بيوتهن التي على يسارها.

ووصلت كريمة إلى النقطة المحدّدة، لكن السائق لم يصِل! ومرّت دقائق أخرى، ولم يصِل. عند ذلك، اضطرّ القسّ سعيد أن يغادر مكانه خلف الشباك، حيث كان يراقب المشهد، ينزل الدّرجات المؤدية إلى الدّور الأول، يخرج، يتجّه إلى ابنته، يُمسك بيدها، ويقودها بعيدًا نحو قلب المدينة.

* * *

بجانب السيارة المتوقّفة، مال الأب ذو القامة الطويلة نحو المدرّب القصير، وهمس له:

- لماذا أخلفتَ موعدك مع كريمة؟

ارتبك المدرب، كان يعرف أن اعترافًا كهذا أمام قسّ هو أقل الاعترافات شأنا من تلك التي يبوح بها الناس على مسمعه:

- لا تؤاخذني حضرتك، لقد أسمعوني كلامًا في البيت لم أكن سمعته من قبل، بل إن زوجتي قالت لي، ألم تجد فتاة أخرى غير ابنة القسّ سعيد لتُفسد...

- أخلاقها. أكمل القس سعيد، وصمت السائق.

- لا تهتم يا بُني، لو كان استخدام السيارة بدل الحصان حرامًا لقلت لا بأس، ولكن الناس كلهم يتسابقون لاستخدامها، والعجيب أنهم مختلفون فقط في من يقودها. الشيء الوحيد الذي سيجعلني أنسى ما فعلتَه بقلب كريمة هذا الصباح، حين لم تأت، أن تعتني بتعليمها، لتتمكن من أن تقود سيارتها وحدها في أقرب وقت ممكن.

- سيارتها؟! سأل المدرب باستغراب.

- ولماذا جاءتك لتتعلّم؟

* * *

راحت السيارة تدور في شوارع المدينة الضيقة الصغيرة، والقس سعيد يجلس في المقعد الخلفي، مراقبا الطريقة التي تقود بها ابنته السيارة كطفل صغير كلما سار خطوة تعثر مرتين. كان يرى كريمة الصغيرة، كريمة التي كان بكاؤها يغطي على صوت الأورغُن، كريمة التي عادت تسير وتتعثّر من جديد، لكنه كان على ثقة من أن هذه الصغيرة التي وقفت وسارت في المرة الأولى، دون أن تتعثّر، ستقف وتنطلق مرّة أخرى.

* * *

في ذلك المساء، كانت الأحاديث تدور حول السيارة التي ستشتريها كريمة. وكان الاختلاف على نوعها، وسنة صنْعها، ما إذا كانت جديدة أو مستعملة، هو ما يشغل الناس، كما لو أن مسألة تعلّمها القيادة أمرٌ حدث منذ سنوات!

صورة نموذجية

بعض الوجوه يجعلك تحسّين أنكِ تنحتين. بعضها أنكِ ترسمين. بعضها أنكِ في مأتم. بعضها أنكِ في عرس. بعضها يدعوكِ لأن تحتضنيه. بعضها أنكِ تألفينه، ولا تريدين مغادرة البيت الذي هو فيه. بعضها يجعلكِ في حالة من انعدام الوزن. بعضها يجعلكِ ثقيلة. بعضها يجعلك تشعرين أنه كان في انتظاركِ منذ زمن طويل. بعضها يستعجل ذهابكِ. بعضها تداوينه، وبعضها تجرحينه. بعضها جدّكِ الذي مات شابًّا، بعضها جدّتكِ، بعضها حبيب في حلمكِ، و بعضها طفل صغير لم تُنجبيه.

ينتفض قلب كريمة حين تصل إلى الوجهين الأخيرين. هي تعرف أن ذلك قد لا يحدث، أنها لن تلتقي بحبيب، لتلتقي بطفل منه، حتى أمّها التي كانت تلوم نفسها باستمرار لأن كريمة وكاترينا نسختان عنها، وأن ليديا نجت، حين ولدت بملامح أقرب إلى ملامح أبيها، حتى أمّها كانت تقول لها، بكلامها هذا: لا نصيب لكِ في الزواج.

القسّ سعيد كان يقول مازحًا، محاولا كسر قوقعة الحزن التي تُطبق عليهم كلما فُتحتْ تلك السيرة:

- يا بربارا، لا تنسي أنكِ تزوجتِ أحلى رجال عائلة دعيبس عبود الأشقر، وأصلعهم!

ويضحك القس سعيد، لكن ألـمًا ما، كان يعبر صدره، لأنه يعرف أن الطُّرفة الجميلة التي تستطيع رسم ظلال الفرح على شفتَي إنسان، لا تستطيع اقتلاع جذور الأسى من قلبه.

* * *

كانت الأسرة، في ذلك البيت الجميل في حيفا، تتراكض من مكان إلى مكان، كأنها تُحضّر لعرس، لكنها لم تكن تفعل شيئا غير الاستعداد لالتقاط صورة.

في البيوت الكبيرة حيث الأقواس، والزخرفات على حواف الّسقوف وفي منتصفها، كانت كريمة ترتاح، فثمة جمال مُعدٌّ منذ سنوات طويلة، لم يعرف من حَرِصَ على وجوده، أنه يجهّزه لصورة ستحتضن ملامح ساكنيه ذات يوم.

بعض البيوت كانت تسميها كريمة: بيوت الشمس. ذلك البيت كان أحدها، بيت بمجرد أن دخلتْه أدركت أن كلّ ما فيه عقَدَ حِلفًا مع عينيها وقلبها وعدستها.

بهدوء جلست تراقبهم يخرجون من غرفة ويدخلون أخرى. كلّ ما كانت طلبته كريمة منهم أن تكون ألوان ملابسهم من عائلة لونية واحدة؛ تعلّمت ذلك، لا من المصورين، بل من لوحات الرّسامين، تعلمت أن تكون الألوان المتجاورة في حالة انسجام وسلام، لا في حالة حرب، لكنها كانت تحسّ أحيانا، رغم عدم تنافر الألوان، أن عليها أن تنقل شخصًا ما، متورِّد الوجه، جميله، لتضعه بين وجهين كامِدَين، عبوسَين، لتُبدِّد جهامة ذلك الجزء من الصورة، وتزرعه بالفرح.

لم تكن تصطنع، فالصورة بالنسبة إليها أيضًا، مثل تنسيق الزهور، فمع منسّقة زهور فنانة يمكن أن تتألق تلك الوردات، ومع منسقة زهور لا ترى ما بين يديها ستتحوّل الباقةُ إلى ركام جاف لا يلمس القلب.

في القصائد يحدث ذلك، لو بعثرتَ الكلمات ووضعتها بين يدي شاعرين. في الموسيقى يحدث ذلك. في البناء، في صناعة الأثاث، في توزيعه داخل البيت. كانت كريمة تبحث عن اسم لذلك الخيط الذي يمرّ عبر الأشياء، ويجعلها جميلة، كما لم تكن من قبل، وأسمته: التّناغُم.

* * *

التقطتْ كريمة الصورة، بعد عمل طويل. كانت الصورة النموذجية التي تريدها لعائلة فلسطينية من عشرة أفراد، متنوّعة أعمارهم، وجمالهم، حتى أن الولد الأصغر، آخر العنقود، بدا لها أنهم استعاروه من جيرانهم، فقد كانت المسافة بين جماله وجمالهم كبيرة، كما لو أن الأب والأم استجمعا أحلى ما فيهما، لينجبا طفلا أخيرًا لن يتطلّعا لوجود أطفال بعده. أما الشّاب الذي يبدو الثاني

بعد أخته، فكان الأكثر قلقًا، يستحثّهم طوال الوقت لكي يُسرعوا، كما لو أن العالم كلّه ينتظره أمام العتبة، يناديه.

الأم كانت هادئة، وإن كانت تسترق النظر بين حين وحين إلى طفلها الأصغر، وتعدّل ياقة فستانها المخمليَ وتسوي أطرافه. في حين وقف الأب ثابتا كعسكريّ أُجبر على التقاعد مبكرًا، وقف في المنتصف، بهدوء رجل صبور ممتلئ بالحكمة والقوة إلى جانب زوجته.

التقطت كريمة صورتين للعائلة، ولم تكن ابتسامتها خافية في كلّ مرّة، إذ لم تكن تلتقط صورة، وحسب، بل كانت تتأمل لوحة ناغمتْها بيديها وبقلبها، وهي تستدعي قول أبيها عن رأيه في صورة العائلة، والبشر الذين أصبحوا ملائكة.

لكن كريمة كانت تدرك أنهم بشر، وأنها مهما فعلت، لن تستطيع أن تحوّلهم إلى ملائكة، سوى في لحظة خاطفة من الزمن، إذ لا يمكنها بعد ذلك أن توقف ركضهم نحو بشريتهم ما إن ترفع إصبعها عن نابض الكاميرا.

قال رب العائلة، لم لا نلتقط صورة أخرى، باللباس الأسود.

ارتبكت كريمة، فقد كان لديها موعد آخر في حيفا، وكانت على وشك أن تتأخر. نظرت إلى ساعتها، ففهم الأب، ولكنه قبل أن يقول شيئًا، أفْلَتَ الشاب القلِق، وقال: وأنا مضطرّ للخروج الآن، وانطلق صوب باب داخلي ليغيّر ثيابه، في وقت تدارك فيه الأب الموقف:

- هل باستطاعتنا أن نفعل ذلك غدًا؟

- بعد غد هو الأنسب لي، سأبقى في حيفا عدة أيام.

- العاشرة صباحًا، وقت مناسب لكِ؟

- أظن أن علينا أن نبدأ أبكر، هناك شمس ويجب أن نستفيد من نورها لأطول وقت ممكن، وتعرفون، المصوّر يستطيع أن يلتقط الصور تحت ضوئها، لكنه لا يستطيع أن يمنعها من أن تتحرك.

الشاب الذي خرج، قال معلِّقا:

- وبعد غد أفضل لي.

وبسرعة خرج.

* * *

إلى الأستوديو الخاص بها انطلقت، الأستديو الواقع في شارع صهيون، الشارع الذي يُنسب لعائلة عربية فلسطينية مسيحية[3] امتلكت بعض المباني والعقارات فيه.

كان الأستديو الذي يحتلّ الدّور الأول من بناية مؤلفة من دوْرين مُلكًا لعائلة ضومط[4] التي كانت تعيش في الطابق العلوي.

من الجهة الشرقية الغربية كان شارع مار يوحنا وفيه مدرسة مار يوحنا وكنيسة مار يوحنا، وهما المعلمان الملاصقان للبناية التي تضمّ أستوديو كريمة. وليس بعيدًا عن تلك البناية، في شارع الزيتون-الذي كانت له مكانة خاصة في نفس كريمة- قاعة سينما كولزيوم، وكانت تعرض الأفلام الصامتة ثم الناطقة بالأسود والأبيض، ثم قاعة (عين دور) للعروض السينمائية والمسرحية، القاعة التي سيغنى فيها فريد الأطرش وشقيقته أسمهان بعد سنوات.

* * *

كما توقّعتها، كانت الصورة، ممتلئة بفائض حياة من النادر أن يصادفه المرء مجتمعًا في صورة واحدة.

علّقت الصورتين الواحدة بجانب الأخرى، وتأملتْهما طويلا بسعادة.

.. وترجّلتْ خائفة!

في صبحية اليوم التالي، خرجت لموعد آخر. كانت هناك مظاهرة تجوب الشوارع احتجاجًا على مهاجمة اليهود والبوليس الإنجليزي لاحتفالات الفلسطينيين بموسم النبي موسى وقتْلهم وجرحهم العديد منهم[5]، كانت المظاهرة كبيرة يتقدّمها أبرز قيادات المدينة من مسلمين ومسيحيين.

* * *

ليلا، كان نومها متقطّعًا، مع أن ما رأته كان يبعث الأمل في داخلها، لأن الناس لم يصمتوا على ما حدث في ذلك الاحتفال، وسواء طال الوقت أو قصر، همست لنفسها، فإن الإنجليز سيخرجون من هذه البلاد، وأرجلهم فوقهم وأيديهم أسفلهم، كما في الصورة التي ظلّت معلّقة بملقطين، الصورة التي التقطتها لجنودهم في ساحة المهد.

حين وصلتْ كريمة بيت تلك العائلة لالتقاط الصورة، في الموعد المحدّد، لاحظت شيئا غريبًا، لم تره أمس. فجأة انقبض قلبها، كان ثمة رجال ونساء يدخلون ويخرجون، وآخرون بباب البيت. حاولت أن تفهم شيئا، لكنها لم تستطع. حملت الصورتين، وترجّلت خائفة من شيء ما ينتظرها، خبر سيء، مشكلة كبيرة، مع أن البيت، ومن فيه كانوا آمنين أول أمس، ولا شيء يشير إلى احتمال وقوع أيّ سوء.

تركت الكاميرا في السيارة.

تنبّهت كريمة فجأة للثياب السوداء، نظرت إلى نفسها، كان فستانها الأبيض مثل فضيحة، لكنها لم تستطع التراجع، سارت نحو الباب، أفسح لها المتجمهرون أمامه طريقًا، دخلت. وقبل أن

تسأل سمعت ذلك البكاء المجروح، ورأت الأم تجلس باكية بثوبها الأسود، الثوب الذي لا يمكن أن يكون الثوب نفسه الذي كانت ستلتقط لها صورة فيه.

رفعت الأم بصرها، ورجَتْ كريمة: أعطيني الصّورة.

انقبض قلب كريمة أكثر. وبيد مرتجفة امتدّت يدها إلى الأم بالصورتين. تأمّلت الأم الصورة التي في المقدمة، دون أن يخطر ببالها أن هناك صورة أخرى. راحت تُقبّلها.

في تلك اللحظة بدأت كريمة تبكي، لقد شقّت قلبها صورة أخرى، صورة بعيدة، ورأت يدها تطبق على يدٍ صغيرة، يد أخيها نجيب، واليد تنفلت من بين أصابعها وتختفي..

لم تكن بحاجة لأن يقول لها أحد أن الذي مات هو ذلك الشاب الذي انطلق مسرعًا للخارج يوم أول أمس.

بكت كريمة وهي توبّخ نفسها: كيف لم ألتقط صورة له وحده؟ كيف تركتُه يذهب قبل أن أصوِّره؟ امتدت يدها نحو الصورة التي بين يدي الأم، فجذبتها الأم إلى صدرها أكثر.

- هناك صورتان يا خالتي.

انتبهت الأم لذلك، فأعطتْها الصورة الجافة، الصورة التي لم يبللها الدمع.

تأملت كريمة الصورة، سالت دموعها أكثر، فبللتها. ورأت الشاب، الشاب الذي في الصورة يتفلّت، محاولا الخروج.

- لم يكن يريد أن تكون له صورة بثياب سوداء، كان يريد أن يستشهد بثياب الملائكة، أبيض، أبيض القلب، والملابس، والوجه. كأنه يريد أن يقول لنا إذا كنتم تريدون أن تلبسوا الأسود، فارتدوه وحدكم. كانت الأم تنوح هاذية.

* * *

في ذلك الصباح، تغيّرت كريمة، ولم تعد الصّور التي تلتقطها عن زمن يمرّ، بل عن بشر كانوا هنا.

عملت طوال الظهر كثيرًا حتى استطاعت أن تُكبِّر صورة الشاب، ونجحت إلى حدّ بعيد. حملتْها، مضت إلى محل للإطارات في شارع الملوك، طلبت من صاحبه أن يصنع لها إطارًا.

تعرّف صاحب المحلّ إلى وجه ذلك الشاب، فهو يعرفه، وكانت جريدة الكرمل قد نشرت اسمه في ذلك الصباح، واحدا ممن استشهدوا في الهجوم على المُحتفلين بموسم النبي موسى.

- بعد ساعة ستكون جاهزة. قال صاحب المحلّ.

- اسمح لي، سأنتظرك حتى تنتهي، لن أخرج من هنا تاركة هذا الشاب، خلفي، مرّة أخرى!

أشار لها أن تجلس، كانت تراقب الصّور على الحيطان، صورًا كثيرة لعائلات، صغار، كبار، رجال ونساء، وهي تتساءل، من منهم على قيد الحياة الآن، ومن منهم رحل؟ رأت مناظر طبيعية، وصورة كبيرة تتوسّط الجدار المواجه للمدخل، كانت صورة متقنة تحيطها هالة من ضوء، لمريم العذراء، حاملة يسوع الطفل، يسوع الذي لم ينجُ أيضًا.

لم تعرف كم مضى من الزّمن، قبل أن تسمع الرجل يقول لها:

- الصورة جاهزة؟

تأمّلتْها في الإطار، وكم تمنّت ألا تكون مضطرّة لوضْعها خلف زجاج، أحست به حبيسا هناك. ولوهلة، أوشكت أن تطلب من صاحب المحل أن يزيل الزجاج، لكنها أدركت أن صورة كهذه ستعيش مع الأم والأسرة، طويلا، ومن الأفضل أن تظلّ محمية كي لا يستطيع الغبار أن يصل إلى ذلك الوجه الذي انتزعت الرصاصات الحياةَ منه.

مدّت يدها لتناول صاحب المحل ثمن الإطار.

هزّ رأسه بصمت، رافضًا..

خرجت.

* * *

في الطريق إلى القدس كانت الأسئلة تطرق رأسها كالموج، ما الذي يحدث للتّناغم حين يسرق الموتُ شخصًا عزيزًا من الصّورة؟ هل تظل الصورةُ صورةً بعد رحيله، هل تظلّ صورةَ من معه؟ أم تصبح صورته وحده؟ ثم أين هو ذلك الذي صوّرها؟ أين هي، تلك التي صوّرتها؟ أين أصبحا بعد أن انتهيا من إنجاز ما عليهما؟!

* * *

في مساء الثلاثاء السادس من تموز، وصلت كريمة أطراف بيت لحم، فوجئت بكثير من الناس يلوّحون لها أن تعود! توقّفت في النهاية، وقبل أن تسأل، قالوا لها: لقد أُعلنت اليوم الإدارة العُرفية، وعُلِّقت الإعلانات على جدران المدينة وخارجها، بعدم السماح لأي أحد بأن يتحرّك إلا بوثيقة من الحاكم العسكري.

وقفت مرتبكة، في وقت كان فيه بعض الناس يدعونها بلطف أن تكون ضيفتهم. لكنها كانت تبحث، بخيالها، عن طريق تستطيع الوصول فيه إلى البيت دون أن تكون مضطرّة للدخول إلى وسط المدينة. وجدتْها. كانت واضحة في رأسها، ليس أمامها سوى أن تسلك طريقًا ترابيًّا ملتفًّا وتصل البيت من الشمال الغربي.

في سباق مع الوقت كانت، باستطاعتها أن تتحرّك في هذا الغروب، دون أن يراها أحد، لكن إذا ما غربت الشمس، فستكون مضطرة لإشعال أضواء السيارة، وهذه هي أفضل وسيلة، للقبض، أو لإطلاق النار عليها.

شكرت المتحلّقين حولها وانطلقت تحاول بلوغ البيت قبل سقوط الشمس خلف المدى الغربي.

مياه سوداء

نهضت بربارا منتصف ليل الثاني عشر من آب عام 1921 لاهثة، غارقة في بحر من العرق.

كان الكابوس أقسى من أن يُحتمل، على شاطئ نهر مظلم كانت تقف. نهر مياهه سوداء، تجري في حوّامات، رأت طفلة تتقدّم بفستان أبيض وشعر ذهبي نحو حافة النهر، نادتها: بربارا ارجعي! وحيرها أن الطفلة تحمل اسمها، لكن الطفلة لم تستجب، كانت تواصل سيرها، لم تسمع، مع أن كلّ شيء كان صامتًا، صامتًا كلون الماء الأسود.

كان على بربارا أن تفعل شيئا لتنقذ الطفلة، أيّ شيء، نادت مرة أخرى، ولم تتوقف الصغيرة، لم تلتفت. حاولت بربارا أن تتحرك، لم تستطع، كانت قدماها منغرستين في طين أسود ثقيل. صرخت في المرّة الثالثة، وعند ذلك التفتت الصغيرة، فهوى قلب بربارا، كانت هي بربارا نفسها، فعلا، وجهها؛ وجه المرأة التي أصبحتها بعد عمر طويل كان وجه الطفلة الصغيرة، وحين صرخت من جديد، كانت الصغيرة قد وضعت قدمها في النهر، وسقطت. أمسكت بها دوامة وجرّتها إلى مركزها. راحت الصغيرة تدور كأنها تُطلّ من قلب رحى عملاقة تطحنها. صرخت بربارا على الضفة، مدّت يديها دون جدوى، والطفلة تستغيث، وفجأة اختفت.

في السرير، صرخت بربارا أيضًا، استيقظ القس سعيد:

- خير إن شاء الله.

- روحي غرقتْ، رأيتُ روحي تغرق.

وقبل أن يُعلّق، غادرت السرير باتجاه غرفة بناتها، استيقظن فزعات.

- كريمة أحضري الكاميرا والحقيني إلى غرفة كريم.

- هل حدث له شيء؟

- لا، أريدك أن تصوّريه.

- الآن؟!

- الآن.

أدركت كريمة أن وضعًا كهذا لا يمكن أن يكون موضع نقاش، نهضت بسرعة، وقالت لها:

- دقيقة، فقط.

وقبل أن تصل إلى غرفة أخيها، سمعت الصرخة التي لو خُيِّرت بينها وبين الموت لاختارت الموت.

كان كريم قد فارق الحياة، يده مُغلِقة فمه. ولزمن طويل ستظلّ كريمة تسترجع ذلك المشهد، المشهد الذي طُبع في قلبها واضحًا أكثر من أيّ صورة التقطتها في حياتها. هل كان يحاول كتْم سعاله؟ أم كان يحاول منْع روحه من الصعود، إلى أن يطلّ الصباح، كي يكون بإمكانه أن يودّع أهله؟

* * *

بعد سبع ليال طويلة من الصمت، سمعت بربارا سعالا قويًّا يهزّ البيت، نهضت، تصفّحت العتمةَ حولها، وهي على ثقة من أنها كانت تحلم، لكنها لم تكن. عاد السّعال قويًّا، حادًّا، همست بصوت مرتفع سمعه القسّ سعيد: كريم؟!

لكن أحدًا لم يُجب. وسمع القسُّ السّعالَ يتصاعد، فهوى قلبه. نهض، طالبًا من زوجته ألا تغادر السرير. لم تستجب، سارت وراءه مردّدة بين حين وآخر: كريم؟! كريم؟!

وقبل أن تصل غرفته الفارغة، أدركت أن الصوت يأتي من غرفة البنات. هوى قلب القسّ ثانية، وأدرك أن كارثة المرض التي غادرت بيته برحيل ابنه، كل ما فعلته أنها أوصلتْ جسده إلى القبر وعادت باحثة عن جسد آخر تُقيم فيه.

كانت كاترينا تسعل، وكريمة وليديا تحاولان تهدئتها، وتحريك الهواء أمام وجهها بمروحتَي يد صغيرتين، فقَدَ الورد الصغير المطبوع عليهما معناه تمامًا.

في الصباح، كانت سيارة كريمة تتوقف أمام البيت ويهبط منها طبيب. بعد ربع ساعة أمضاها مع المريضة بحضور القس سعيد، وقف، وغادر الغرفة. تبعه الأب، حين وصلا الباب الخارجي، في ذلك الصباح الحارّ كظهيرة، قال للقس سعيد: إنه السّل، مرة أخرى.

كانت كاترينا أول من التقط المرض، لكنها قاومته كما قاومت سطوة أمها التي راحت تشتدّ. أمها التي جُنت ثانية، صرخت، بكت، طرقت صدر القس سعيد، كما لو أنه باب نجاةٍ. ركضت بين غرف البيت، إلى آخر الحديقة، وحين سمعت محرّك سيارة تقترب، انحنت، أمسكت بحجر كبير، ركضت نحو المساحة الصغيرة أمام باب الكنيسة، وهي تتابع السيارة بأذنيها، كانت السيارة تحتها، صرخت: وهذا من أجل كاترينا. وسقط الحجر في منتصف الصندوق الخلفي بين الجنود، كان حجرًا كبيرًا دوّى كقنبلة، ارتبك السائق، لكنه سيطر علي السيارة أخيرا قبل أن ترتطم بسنسلة. نزل الجنود البريطانيون منها، مُشهرين أسلحتهم.

لكن ذلك لم يُشف غليل بربارا، لم يرو عطش غضبها وأسئلتها.

* * *

شكّها في كلّ شيء، وبحثها عن سبب لكل المصائب التي حطت في بيتها وسحقت قلبها، حوّل بربارا إلى كائن قاس، لم يسلم منه أحد. في حين أن ليديا تمرّدت أكثر، كما لو أنها تتحدّى كل شيء بعد اكتشافها لجرثومة السلّ التي تسللت إلى صدر أختها.

تمرّدت ليديا، ابنة الخامسة عشرة، كأنها تعلن أنها غير مستعدة لأن تموت. قصّت شعرها، وبذلك أصبح لدى الأمّ سبب آخر تضيفه إلى أسباب المصائب التي تلاحقها، صرخت في وجهها: ابنة القس سعيد والمعلمة بربارا تريد أن تكون مثل بائعات الهوى!

في الليل تذكّرت أن الإنجليز هم السبب، فليديا لم تقص شعرها لا قبل مرض كريم، ولا قبل مرض كاترينا.

لكن ذلك لم يُرحْها تماما.

رياح ما بعد الموت

موحشًا أصبح البيت، أكثر من أي يوم مضى، فحين يختطف الموت والجنون ثلاثة أولاد، ويستولي المرض على جسد كاترينا، ترتبك الحياة، ومعها ترتبك الأرواح.

تصاعد غضب بربارا، وحين كانت تنفجر في وجوه مَن تبقّوا من أفراد العائلة، لأوهى الأسباب، كانت ليديا تعاتب الأشياء حولها: الشتاء والصيف، الخريف والربيع، النوافذ والأبواب، الطريق، أوله، ونهاياته، تعاتب الأرض وكائناتها، وتعاتب طيورها ونجومها وشمسها وليلها.

الفتاة الأرقّ، كانت تأكلُ نفسها. وفي وقت وجدت فيه كريمة في الكاميرا رفيقة يمكن أن تبوح لها بكل شيء، رفيقة يمكن أن تحفظ الناسَ أحياء في الصور، كان جيتار ليديا يتحوّل يوما بعد يوم إلى كائن صامت، متخشّب، لم يعرف أغنية ولم يبح بلحن. ليديا، التي ستتسع مساحات عتبها يومًا بعد يوم، وهي ترى العائلة تنسل من بين يديها إلى غياب لا عودة منه، وسيدفعها ذلك إلى أن تلجأ في النهاية إلى الكتابة، لتقول عبرها ما لم تستطع قوله لأحد، وستحرص على ألّا يرى أحد ما تكتب، كي لا يكتشف صورة روحها المتأرجحة فوق خيط رفيع، بين اليقين والشكّ، وهي تعاتب الأرض، وتعاتب السماء.

* * *

في الوقت الذي كانت فيه كريمة تصوّر، واسمها يتردّد في المدن الفلسطينية، كانت لا تتوقّف عن البحث، كانت تريد أن ترى كل صورة التقطها مصوِّر قبلها، كانت تريد أن تعرف ما الذي فعلته، وما الذي لم تفعله بعد، لم تكن تريد أن تكون امرأة، مصوِّرة، وحسب، وهذا هو كل

تفرُّدِها. كانت تريد أن تكون مصوّرة حقيقية في غابة المهنة وأصحابها، أن لا تكون صورها أقلّ قيمة من صورهم، أن تصوّر ما لم يستطيعوا تصويره، ما لم تستطع أعينهم أن تراه.

كانت كريمة تعرف أنها لن تخوض معاركها مع المجهول، كما تفعل ليديا وأمها، بل مع الواقع، والواقع بالنسبة لها، مهما تعدّد، كان يتجمّع متجسدًا في الصورة، الصورة التي تلتقطها هي، بكل جوارحها.

تعرّفت أكثر إلى تجربة المصور الأرمني إيساي غربيديان القادم من آسيا الوسطى إلى إسطنبول، ثم بعدها إلى القدس، وغدا بطريركًا للكنيسة الأرمنية فيما بعد، ذلك المصور اللامع الذي لم يُتح له منصبه الدّيني أن يمارس أحبَّ هواياته إلى قلبه. لكن تأسيسه ورشة لتعليم التصوير وبروز عدد من طلبته كمصورين كان يعزّيه. تعرّفت كريمة إلى صور غرابيد كريكوريان، الذي افتتحَ في ثمانينيات القرن التاسع عشر أول أستديو في القدس، خارج باب الخليل، ثم على أعمال تلميذه خليل رعد، أول المصورين الفلسطينيين، وأعمال عيسى الصوابيني، داود صابوخي، وأعمال المصوِّرَين لويس صابونجي، وأخيه جورج، التي كانت تأتي من بيروت.

كانت كريمة تنهل من كل صورة تراها، وترى في رعد وكريكوريان وسافيدس، في القدس، أساتذة لها، وكذلك الصوابيني في يافا.

أما أكثر ما كان يحيرها في صور الأجانب، التي يلتقطونها في فلسطين، فهو كيف يحضُرُ المكان ويغيب الإنسان، وكيف يُصـرّون على أن يقتلوا جمال المكان، وهم يجرِّدونه من الحياة التي تضجّ فيه.

إلى البعيد ذهبت كريمة، إلى كل بعيد، حتى بيروت، باحثة عن الشيء الضائع الذي هي بحاجة إليه، رغم أنها تعرف أنه في داخلها. كانت تُدرك أن كل مصوّر تعرفه، وكل صورة ووجه، وكلّ مكان توقِف سيارتها، بجانبه أو على مشارفه، وتتأمّله، إشارات لطريق آخر عليها أن تشقّه بنفسها، لتصل إلى ما تحلم به.

* * *

بعد ثلاثة أعوام من موت كريم، كانت قد حسمت الأمر لصالح الصورة؛ لقد أنقذتها الكاميرا، ومدّت لها يد العون لتظل على قيد الحياة، ترى وتسمع وتتأمل، وتتنقّل، ولولا ذلك لجلست مقيَّدة

جوار روح أمها في نار تلك المآسي التي سكنت أشباحها كل زوايا البيت؛ وأدركت كريمة أن ما تفعله هو خيط الأمل الذي تشبّث به القس سعيد، ليقول لنفسه، قبل غيره: إن الحياة ما زالت تسير في هذا البيت. القس سعيد الذي كلما افتقدته بجانبها، سمعت عزفه على الأورغُن يأتي من قلب الكنيسة.

هل كانت كريمة تعمل أكثر لتُسعده أكثر، أم لتجد نفسها؟ أم لتمنع تلك النفس من التلاشي؟

الشيء الوحيد الذي كان يرعبها، أن يحدث مكروه لأبيها.

* * *

كلما حاولت كريمة تذكُّر وجهٍ، اكتشفت أنها تعود إلى صورتها وهي تمسك بيد أخيها نجيب، صورتها الأولى التي التقطتْها للعائلة، صورة وجه ذلك الشاب الذي استشهد، الصورة التي أخرجتها من بين وجوه العائلة، وأطّرتْها، وصورة ليديا، صورتها الجميلة وهي تعزف على الجيتار، وعلى وجهها أجمل ابتسامة في العائلة.

لقد اختفى الكثيرون كما اختفت ابتسامة ليديا منذ موت كريم.

في واحدة من ليالي كانون أول من عام 1924، همست كريمة وكأنها تحدّث نفسها:

ـ الغياب والصورة لا يجتمعان.

ـ ماذا؟ سأل القس سعيد، وهو يرفع رأسه عن كراساته التي يدوِّن فيها الأمثال الشعبية الفلسطينية.

ـ الغياب والصورة لا يجتمعان.

ـ لقد سمعتك، وكنت دائما أخشى أن تُبالغي.

ـ لا لن أبالغ، رغم أنني بتُّ أعتقد أن الصورة أقوى من الاسم، صورنا أقوى من أسمائنا. أجمل اسم قد لا يساعدك على استحضار ملامح شخص، بصورة كاملة، لكن صورة واحدة كافية لأن تجعلك ترى عشرين وجها، خمسين وجهًا، ومن يعرف، ربما ستجعل الناس يرون في المستقبل ألف وجه. أحيانا أحسّ أن الاسم يذبل ما إن تفارق الروحُ الجسد، ويتحوّل إلى حروف حزينة، ملتفّة

على نفسها، متلاشية من ذاكرة كثير من الناس، لكن الصورة غير ذلك تمامًا، إنها تزداد قوة كلما رأيناها، كلما مرّ الزمن وأصبحت أقدم.

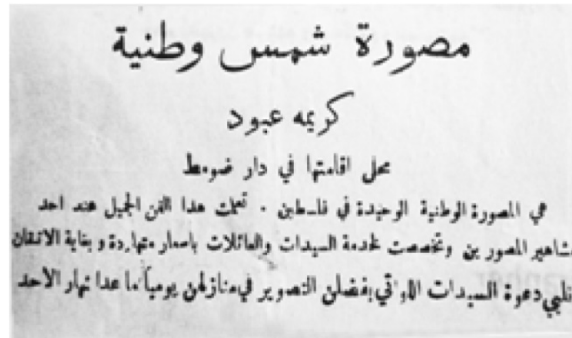
- تعرفين يا كريمة، لا أظن أن هناك من تعليم أفضل من ذلك التعليم الذي يحصل عليه الإنسان من مهنته التي يمارسها، إذا كان يملك عينين واسعتين وقلبًا مفتوحًا. ورغم أنني عملتُ معلِّما، وأحببتُ في البداية أن تظلّي معلِّمة، إلا أنني (سعيد)، وأطلق ضحكة صغيرة، حين قررت أن تنتقلي إلى مهنة أخرى.

وسرح القس سعيد، لكن كريمة لم تعرف إلى أين وصلت به أفكاره، ولم تجد وسيلة أفضل من أن تعيده إلى المكان الذي يجلس فيه سوى أن تمدّ يدها إليه بجريدة الكرمل.

- ماذا فيها؟

- مفاجأة، بل المفاجأة التي أتمنّى أن تسرّكَ.

لم يكن على القسّ سعيد أن يبحث كثيرًا في جريدة صغيرة من أربع صفحات، وهكذا وجد نفسه مع ذلك الإعلان الواضح، صورة وكلمات، فعبرتْ قلبه موجة فرح مباغتة حرَّكت الدمع في عينيه، لكنه



استطاع السيطرة على انفعاله.

مدّ يده وأمسك بيد كريمة: لقد تأخرتِ قليلا في نشر هذا الإعلان، ولكن ما يخفف الأمر علّي، أنك كمصورة ولِدتِ قبْله، وكبرتِ قبله. ذات يوم سأموت وابتسامة واسعة على شفتَي، أتعرفين لماذا؟

- لماذا؟

- لأنني لم أمنحكِ حرِّيتكِ بقدر ما استطعتِ انتزاعها من الجميع.

تعميد آخر!

منذ أن بدأت التصوير، كانت كريمة تستعرض في ذهنها، بين حين وحين، من هو ذلك المصور الذي سيلتقط لها صورتها، الرَّسمية، الشخصية، التي ستكون الصورة الأكثر استخدامًا من بين صورها.

كانت تعرف أن صورة كهذه لن تستطيع أن تلتقطها بنفسها، وإن كانت بين حين وآخر، تمنّت لو أن الكاميرا التي تمكِّنها من ذلك قد صُنِعت. أن تقف، وترتّب كل شيء، وهي أمامها، وبحركة خفيفة من إصبعها تلتقط الصورة التي تريد! لكن الأمر لم يكن بتلك السهولة، إذ عليها أن تحشر رأسها في كيس الكاميرا الأسود، ترى نفسها رأسًا على عقب، ثم بنفسها، وهي بجانب الكاميرا، أو داخل الكيس، تضغط النابض.

في طريقها، للأستوديو الخاص بها في دار ضومط، بحيفا، أحست أنها لا تذهب إلى هناك، هذه المرة، لكي تصوّر زبائنها، ولكن لشيء آخر، أن تكون أمام الكاميرا، لا في جوفها، ولا بجانبها، أو خلفها. كان المصور سي ساويدس[6]، من حيفا، هو ذلك المصوّر الذي اختارته، ولكنها لم تكن تعرف كيف ستحدّد له مواصفات الصّورة التي تريدها، لنفسها، فأن تطلب منه ذلك، فهذا يعني اعتداء على أستاذيته وفنه وخبرته الطويلة.

هي نفسها، تغضب حين يبدأ أحدهم، أو إحداهنّ، بالتقاط الصورة، لنفسه، أو لنفسها، قبل أن تلتقطها هي. ولم يكن الأمر يخلو من ذلك بين حين وآخر.

ذات مرة كانت في القدس، حين راح أحد شباب الأسرة التي ستلتقط لها صورة، يحرّك الأثاث، ويعدل الستائر، بل ويحدد المسافة بين أسرته والكاميرا. كان شابا متعلِّما أنهى دراسة الطبّ

في إسطنبول، ولا يكفّ عن الحديث عن الصّور، والمصورين الأتراك، ومدى براعتهم. قال، كأنه يخاطب الجميع: لا تنسوا أن الوضع هناك يحتّم على المصورين أن يكونوا على درجة رفيعة من إتقان فنّهم، فتلك عاصمة الدولة، إسطنبول، لا القدس، أو حيفا!

في ذلك اليوم، جمعت كريمة قوائم حامل الكاميرا، والتفتت إلى ربّ الأسرة، وقالت: أرجو أن تعذرني، أظنني لن أستطيع التقاط صورة لكم.

لم يكن صعبًا على ربّ الأسرة أن يفهم السبب، هو الذي كان يهزّ رأسه موافقًا ابنه. لكنها لم تكن تعرف، أنه لم يكن يؤيد كلام ابنه، لأنه في الأصل لا يعرف المصوّرين الأتراك، بل كان يهزّ رأسه لأنه فخور بهذا الابن الذي كان بالأمس طفلا، وأصبح يتحدّث بثقة عن إسطنبول، ومصوّري إسطنبول.

لم تتراجع عن قرارها، فقد أحست أنها لو تراجعت، ستلتقط صورة سيئة، لا تمثّلها، ولا تستطيع أن تضع ختْمها خلْفها، ستكون أشبه بصورة لقيطة، لا نسبَ لها، رغم أنها تعرف أنها الأم والأب معًا.

رُبَّ ضارة نافعة.

صحيح أن مزاج كريمة تعكّر لمدة أسبوع على الأقل بعد ذلك اليوم، لكن ما حدث أكّد سلطتها المطلقة على الصورة التي تلتقطها، وغدت هي القائدة في تلك المساحة الصغيرة التي يصطف فيها الجنود، مُنفِّذين تماما ما يريده قائدهم.

بعد ذلك الأسبوع استبعدت مثال القائد والجنود، فقد رأت فيه صرامة لا تحتملها الشمس التي ترسِمُ بها وجوه الناس وأماكنهم، فقالت: كالطبيب. لكن الناس الذين تصوّرهم لم يكونوا مرضى، بل بشرًا يريدون أن تكون لهم لحظات سعيدة لا يستطيع الزمن أن يسلبهم إياها. فقالت: مثل أيّ فنان، أو كاتب، أو موسيقي. صحيح أن هناك هدفا خلف التقاط كل صورة، لكن الهدف النهائي لكل الصور، أن تكون جميلة، فريدة.

* * *

ما إن أوقفت السيارة أمام باب أستوديو المصور سي ساويدس، حتى رآها عبر واجهة محلّه المحتشدة بأفضل الصور التي التقطها، حسب رأيه، وقد كان مثله مثل سواه من المصورين يستأذنون زبائنهم الذين يلتقطون لهم صورًا رائعة، أن يسمحوا لهم بعرض تلك الصّور على جدران الأستوديو أو في واجهته.

- الآنسة كريمة! خطوة عزيزة.

- شكرًا لك أستاذ ساويدس.

- ما رأيكِ، ما دمتِ وصلتِ إلى هنا، أن تستلمي الأستوديو، فليس هناك من هو أحقّ منك بذلك، فكما ترين ساويدس شابَ.

- أنت أستاذنا الذي لا يملأ مكانه أحد.

- هذا كلام جميل يسعد المعلم ساويدس، ولكن هل تستطيعين إثباته؟!

- رغم أنك لست بحاجة لإثبات، ولكن من بين كل المصوّرين جئت إليكَ لتلتقط لي صورة رسميّة.

- هذا شرف كبير، ساويدس سيلتقط صورة لأول مصورة فلسطينية شغلت عالم التصوير بفنّها وريادتها.

- بل أرجو أن يقبل أن يلتقط صورة لتلميذته.

اكتشف المعلم ساويدس أنهما ما زالا يتحدثان وهما على الرصيف.

- تفضلي، تفضلي، قال وهو يشير لها أن تدخل، بلطف شديد.

جلست تتأمّل الصور الجميلة لأناس بمختلف الأعمار مؤطرة بشكل جميل ومعلّقة على الحيطان.

- هل في ذهنك صورة محدّدة، وضعيّة محددة، ضوء محدّد، خلفيّة محدّدة، للصورة التي تريدينها يا آنسة كريمة؟

- بمجرد أن عبرتُ عتبة الأستوديو لم أعد مصوِّرة. كل شيء متروك لكَ؟

لأكثر من سبب كان المعلم ساويدس يريد أن تقترح شيئًا، لأنه يريد في النهاية صورة تعتمدها كريمة فعلا؛ وأن تختاره، في ضوء شهرتها المتصاعدة، فهذا يعني أن تلك الصورة ستفتح أبوابا كثيرة للناس كي يُقبلوا عليه، فهو الذي التقط صورة كريمة عبّود!

- أنت تجعلين المهمة صعبة عليّ.

- أبدًا، لأن أي صورة ستلتقطها لي، ستكون جميلة، رغم أنني لست بجمال زبوناتك، وأشارت إلى صورة امرأة فاتنة معلّقة على الحائط.

- بل أنتِ جميلة الجميلات.

- لنعد للصورة أفضل من أن تجاملني إلى هذا الحدّ! فأنا أعرف أن التقاطك صورة لي هي تحدٍّ كبير لكي أبدو جميلة فعلا.

المعلم ساويدس وجد أن عليه أن يختصر، فهو يجاملها، مع يقينه أن ليس هناك وجه يخلو من الجمال تمامًا، وأن بعض أهم الصّور التي التقطها كانت لوجوه غير جميلة، ولكنها كانت الصور الأكثر تعبيرًا وقوة، حيث يبدو له أن الضوء يضطرّ أحيانا أن يستعين بعدوّه الظلّ، كي يُرمم ارتباكه، ليكون أكثر حضورًا في أخاديد التجاعيد والمحاجر الضيقة والجباه المتغضِّنة.

حين قال لها تفضلي، وأشار إلى ذلك الحيّز الدّاخلي المخصص لالتقاط الصور، كان قد التقط الصورة في رأسه فعلا.

سيكون الضوء مُسلّطا على كريمة، لأنها هي الأساس، وسيضع هيكل الكاميرا الخاصة بها، التي ستكون على يسارها، في ظلّ خفيف، ويترك بعض الضوء يسقط على عدسة الكاميرا، بحيث تتوازن كُتل الضوء في الصورة وتتوزع بين جسد كريمة والعدسة، ما سيعطي الصورة عمقًا. ولكي تكون الصورة حيّة، سيدعها تمسك بيمناها نابض الكاميرا، كما لو أنها هي من ستلتقط له الصورة، لا هو، وبذلك ستبدو صورتها متحرِّكة، لا ثابتة.

في تلك الظهيرة أحسّت كريمة لأول مرّة، بمذاق مختلف للضوء وهو يلامس جسدها، وحين كان المعلم ساويدس يطلب منها أن تعدل وضع رقبتها، أو تنشر نظرة الرّضا التي تُضمر ابتسامة خفيّة واثقة، كانت تحسّ بالضوء، يمرّ على وجهها، يغوص في جلدها، ويُعيد تشكيله من جديد.

كانت مثل كتلة من الطين بين يدَي خزّاف ماهر.

* * *

في المساء، حين راحت تتأمل صورتها التي وضعتْها أمامها، لم يكن صعبًا عليها أن ترى أن المعلم ساويدس صوَّرها مستخدمًا أربع أعين: عينيه وعينيها، ولم يكن صعبًا عليها أن تعرف أن المعلم فَهِمَ كل صورة التقطتْها، فثمة توزيع للكتل لا يتقنه أحد مثله، وثمة اللطف، والبساطة، والسماحة، والضوء الذي لا يحسّ به أحد مثلها![7]

لقد استطاع المعلم أن يرسل إليها رسالة تقدير خفيّة، رسالة إعجاب بفنها، حين استعان بأسلوبها ليصوِّرها، دون أن يقول ذلك مباشرة.

لكن هناك أشياء كلما حرصت على إخفائها أكثر، انكشفتْ أكثر!

القوقعات

في الوقت الذي كانت فيه بربارا تقاوم حزنها في البيت بسبب مرض السّل الذي انتقل من كريم إلى كاترينا، كان قلبها ينهار مع الأخبار، التي كانت تسمع بعضها، وتحسّ وترى بعضها الآخر، حول حالة آخر أبنائها الذكور، منصور.

لم تكن مشاويرها اليومية تتوقّف بين البيت والميتم الأرمني الإنجيلي الذي سيُعرف لاحقًا باسم: مستشفى المجانين. رحلة يومية لا تحتاج لأكثر من عشر دقائق كي تقطعها على الأقدام، لكنها الدقائق العشر الأطول.

في ذهابها، لم تكن تتخلّى عن الأمل في سماع جديد يُحييها، وفي إيابها، تطول الطريق حتى لتبدو المقبرة أقرب إليها من بيتها. وحين تمرّ بجانب ثكنة الجنود الإنجليز، في ساحة كنيسة المهد، تتخيّل نفسها تقوم بأفظع الأفعال ضدهم، غير قادرة أن تفسّر: لماذا لم يضعوا هذه الثكنة إلا بباب الكنيسة؟ هل يريدون أن يقولوا لنا، إننا لا نستطيع الوصول إلى الربِّ إلا إذا سمحوا لنا بذلك؟!

تطلب المغفرة: سامحني، تهمس وهي تنظر إلى السماء.

* * *

كان التهشّم الذي لحق بظهر منصور، بسبب السّقطة من الجرسيّة، قد تحوّل إلى ما يشبه الحدبة، فانحنت قامته قليلا، ويومًا بعد يوم، كانت تراه بربارا يواصل ابتعاده، وأنه لن يعود أبدًا ليكون ذلك الطفل الصغير الممتلئ بالحياة، المتقافز من مكان إلى آخر كالطائر. كان جسده يكبر أمامها، لكن عقله لم يعد يتّسع لأي شيء في هذا العالم الذي يتحرك حوله.

بربارا التي كانت تعرف أن منصور لن يعود إليها ثانية، لم تتوقّف عن الطلب من القس سعيد أن يبحث لها عن حلّ، وطوال سنوات، لم تتوانَ عن السعي لطلب المشورة، حتى أن طبيبين ألمانيين زارا بيت لحم، وحلّا ضيفين في فترتين تفصل بينهما سنتان، ذهبا لزيارة منصور، وفحْصه.

لم تكن إدارة الميتم الأرمني الإنجيلي تعارض، أو تتحسس من ذلك؛ كانت العلاقة التي تربط أفرادها مع القس سعيد قوية، ودافئة على الدوام، لكن النتيجتين اللتين توصّل إليهما الطبيبان كانت نتيجة واحدة، حزينة، حتى أن الطبيب الثاني اختصر إقامته في بيت لحم، وتوجه إلى الناصرة، في سيارة كريمة، التي أصرّت أن توصله بنفسها، حين اكتشف أنه بات ضيفًا ثقيلا على بربارا بسبب كلماته الواضحة عن حالة منصور، تلك الكلمات التي سدّت آخر أبواب الأمل في وجهها.

* * *

كانت كريمة التي تتقن الألمانية والإنجليزية والعربية، مُحرجة، لا تعرف كيف تعتذر له، رغم قدرتها على التكلّم بتلك اللغات. ما كان يخفف من ارتباكها، والسيارة منطلقة، ادعاؤها أنها تتأمل الطبيعة في نهايات آذار، الطبيعة التي كانت تستعدّ لأن تولد في دورة أخرى.

الطبيب الألماني النحيف، صاحب العينين الزرقاوين، كانت قامته محشورة بين الكرسي والسقف، بحيث يمكن لمن في الخارج أن يلاحظ نتوءًا في الغطاء القماشي للسيارة، الطبيب الألماني لم يكن باستطاعته أن ينظر إلى الجهات الثلاث التي كانت تتأمّلها كريمة. اكتفى بذلك المشهد الممتدّ أمام السيارة المنطلقة، كانت السيارة ضيّقة عليه، والعالم أضيق، نتيجة ما حصل.

بعد ساعة من انطلاقهما، وجدتْ كريمة أن عليها كسْر قوقعة الصمت التي حُشرا فيها:

- أرجو منكَ أن تنسى فظاظة أمي، فمنصور آخر أبنائها الذكور، الذي لو اختطفه الموت، يوم سقط من الجرسية، لكان الأمر أرحم، ربما! كما أنك رأيت كاترينا؛ وضعها يخيفنا جميعًا. منذ أيام قالت لي كاترينا: فليرحمني الربّ، لقد وضعتكم جميعًا في حالة، لا أنتم تستطيعون فيها الهرب مني ولا أنا أستطيع الهرب فيها منكم. إنها تتعامل مع نفسها وكأنها قاتلة! كما لو أنها لم تكن ضحيةً لضحيةٍ طيبةٍ لم تُرِد إلْحاق الضرر بأحد. إنها تخشى أن تكون أمها أولى ضحاياها، إنها لا تبتعد عنها إلا حينما تذهب لزيارة منصور. ولعل أمي، نفسها، مرتبكة، لأنها تعرف ذلك. أنا نفسي لم أعد

قادرة على أن أفعل شيئًا، والأمور تزداد سوءًا، مع أنني الوحيدة المحظوظة بينهم، لأن في استطاعتي أن أركب السيارة وأبتعد عن البيت، وأن تكون لي فرصة لأن أنسى، وإن كنت أعترف أنني لم أعد أستطيع أن أنسى، فكل صورة التقطُها للناس تذكرني بتلك الأسرة التي خلْفي، الأسرة التي يتساقط أبناؤها ويصفرُّون، كما تتساقط أوراق الخريف، وتصفرّ، دون أن يكون هناك أمل أبدًا، في أن ربيعا آخر سيأتي.

كبحت كريمة دموعًا أوشكت أن تبلل خديها، فغام الطريق أمامها، تضبّب.

في تلك اللحظة أحسّ الطبيب بأنه هرب من الألم القابض على كل شيء في بيت القس سعيد، أكثر مما هرب من غضبه بسبب الأمّ التي باتت تتصرّف معه، وكأنه هو مَن أمسك بابنها وألقى به من فوق الجرسيّة.

- سأصارحكِ، لا أظنني أختلف عنكِ، وإن لم أكن أشجع منكِ بالتأكيد، فأنت تهربين من الألم لتعودي إليه ثانية، أما أنا فقد هربت وليس في عقلي فكرة العودة إليه أبدًا.

* * *

.. وكما ضاق البيت على بربارا وسعيد وليديا، ضاق أكثر على كاترينا؛ كانت أخبار مرضها قد انتشرت، وأقفلت تمامًا دروب أملها نحو حياة جديدة، وانتهى حلْمها إلى الأبد في أن تخرج من ذلك البيت عروسًا، ويكون لها أولاد.

كل ما استطاعت أن تفعله كاترينا، لكي تكفّر عن كونها قاتلة! سكن بيت ضحاياها الذين يقدِّمون لها قلوبهم قبل الخبز، وبصرهم قبل ضوء القنديل، أنْ طلبت من ليديا ألا تقترب من غرفتها أبدًا. كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة لحمايتها.

غضبت ليديا، رفضت، وقالت إنها لن تترك أمّها تقوم بكل شيء وهي واقفة تتفرّج، لكن كاترينا أصرّت، ووصل الأمر إلى أنها بدأت تمتنع عن أيّ طعام أو شراب تأتي به ليديا إليها، حتى لو تسبب ذلك بموتها.

.. وثانية وجدت بربارا نفسها في مهبِّ ريحين متعاكستين في وقت واحد، وهكذا، متحلّية بصبر الأمّ وعذابها وحرصها على أولادها، دفعت ليديا بعيدًا، وقرّرت أن تحتمل عبء كاترينا

ومرض كاترينا وحيدةً.

* * *

كان المرض في أيام كثيرة، لحسن الحظ، يبدو وكأنه تراجع، اختفى، فيتورّد وجه كاترينا، وينبعث فيها الأمل، فيكون أول شيء تفعله هو أن تعتذر لليديا، وتراضيها، لكنها لم تكن تقترب منها. كانت تعرف أن مرضها موتٌ، وليس مجرد مرض، إنه مراوغ، لئيم، وأنه في الحقيقة لم يتراجع، أو يختفِ، فكل ما في الأمر أنه يدّعي ذلك، يكمُن، منتظرًا اللحظة التي تقترب فيها ليديا منها، ليقفز كالطعنة، مخترقًا رئتيها.

* * *

في الليل، حتى في ذلك الليل الهادئ الذي لا يسمعون فيه سعالها، كانوا يستيقظون على صراخها، وقد داهمتها الكوابيس: أهربي يا ليديا أهربي، سيقتلكِ، أهربي.

وفي الغرفة المجاورة كانت بربارا تستيقظ، وتمسك بياقة زوجها هاذيةً: لماذا لا تتحدث معه، لماذا لا تطلب منه أن يخفف البلاء الذي يقتلنا واحدًا بعد الآخر؟ لماذا؟

تلك الليلة بكى القسّ سعيد كما لم يبكِ في حياته.

أعياد ناقصة!

هل لأن ليديا كانت هي الأصغر، كانت كاترينا تخشى عليها؟ هل لأنها الفتاة التي تمنّت أن تنجبها، كانت تستيقظ فزعة، كلما استشعرت الخطر مُحدقًا بتلك الفتاة الرقيقة؟ هل لأن كاترينا كانت تعرف أن أي مكروه يلحق بليديا سيُفقِد أمّها صوابها، ويعجّل في موت الأمّ؟

كان رأس كاترينا يغلي، وقلبها يغلي، والشوارع في الخارج تغلي، فثورة الخليل، جارة بيت لحم، هزّت فلسطين، وجاء إعدام محمد جمجوم وفؤاد حجازي وعطا الزير[8]، ليُلهب مشاعر الناس أكثر فأكثر.

تغيرت العِظات، وأصبح القسّ سعيد، الذي كان يدّخر السياسة وشؤونها لجلساته الخاصة التي تجمعه بأصدقائه ومعارفه، حريصًا على أن يتحدّث في كل عظة حول أوضاع البلاد، وما يحدث من قتْل، وما ستأتي به الهجرة اليهودية من مآس.

أما كاترينا فقد كانت تتابع ما يدور في الخارج، وكان مذياع فيلبس الذي تملكه العائلة، أفضل طائر قادر على نقل أخبار المعمورة من كلّ الجهات.

الحديث المتواصل عن ضرورة أن ينهض الناس لحماية بلدهم، بعث في كاترينا قوة لم تكن تتوقّعها في جسدها المنهك، اختفت الكوابيس، وتراجع السّعال القاتل؛ السّعال الأشبه بيد شيطانية تمتد إلى جوفها لانتزاع رئتيها وقلبها وأضلاعها، وساعد في ذلك أيضًا انتقالهم للعيش في بيت آخر. وهو قصر ضخم، إذا ما قورن بأي بيت، بأعمدته الرخامية وواجهاته الحجرية وأبوابه ونوافذه الواسعة المطلّة على الجهات الأربع، ولا يبعد عن الكنيسة أكثر من خمس دقائق، سيرًا على الأقدام.

كما أن ارتفاعه، والرياح التي كانت تهبّ عليه بوفرة، وفي كل الفصول، ملأت صدر كاترينا بحياة جديدة.

الشيء الذي كان يؤلمها، أنها كانت تحسّ أن غضبها على الإنجليز، وغضب أمها أيضًا، قد لا يكون صافيًا كما يجب! فهو ليس بسبب الجرائم التي يرتكبونها في الخارج فقط، بل بسبب الجرائم التي ارتكبوها داخل بيتهم.

باحت بذلك لكريمة، وكأن الغضب إيمان، يجب أن لا يُمسَّ طُهْرُه، فربّتت كريمة على كتفها برفق، وقالت: وهل هنالك فرق بين جريمة ارتكبوها داخل بيتك وجريمة ارتكبوها أو يرتكبونها الآن، في الشارع؟

* * *

في تلك الفترة، بات التحرّك صعبًا بالنسبة لكريمة، وبدا أن آخر شيء يفكِّر فيه الناس هو التقاط صور لهم. انشغلت بتصوير أهل البيت. لكن أكثر الأفكار إلحاحًا، في زمن الموت والخطر ذاك، كانت فكرة أن يكون لها طفل.

هي نفسها لم تعرف لماذا بدأ ذلك الهاجس يلحّ عليها بكل تلك القوة، هل لأنها أتمّت السادسة والثلاثين، وبدأ خوفها من جسدها يتزايد، جسدها الذي أصبح على وشك التخلّي عنها، عن حلمها في أن تتزوج وتنجب؟ أم لأن فائض الموت الذي بات يحيط بكل شيء ويهدّد كل حياة، لم يكن من السهل دحْره إلا بوجود حياة جديدة في ذلك المنزل؟

كانت على ثقة من أن أمها ستنسى نصف أحزانها إذا ما رأت حفيدًا لها. لم يكن وضع أمّها في تحسّن، فالحزن كان يتضاعف، مع كل سنة، هي التي لم تزل، رغم كل شيء، تحرص على الاحتفال بعيد ميلاد منصور. تذهب إلى المستشفى بكعكة كبيرة، تكون شغلها الشاغل طوال شهر قبل الموعد، وكيف ستفاجئه بشيء لم يسبق له أن رآه، وهي تعرف أنه لم يعد يتذكّر ما مضى ليتذكر ما هو جديد.

في ذلك اليوم تُحضر له ملابس رسميّة، وتحرص على أن تلتقط لهم كريمة عدّة صور.

في ذلك العام، 1930، كان منصور قد بلغ السابعة والعشرين من عمره، فأحضرت له بدلة بلون البحر، جميلة، أصرّت على أن تشتريها، رغم اعتراض القس سعيد، لأن الوضع العام لا يسمح باحتفالات. في ذلك اليوم قالت له: ومتى سيكون الوضع ملائما لكي أشتري بدلة لابني؟!

في الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم، ركبت العائلة سيارة كريمة، وتوجّهوا جميعًا إلى مبنى الميتم الأرمني الإنجيلي، وهو مبنى ضخم جميل. كانت السيارة تعلو وتهبط برفق فوق تراب ذلك الشارع الذي يمرّ بجانب الكنيسة، قبل أن يبدأ بالانحدار باتجاه قلب المدينة.

لكن مظاهر الاحتفال التي كانت واضحة على الجميع، لم تكن تلامس شفاههم، فكيف بقلوبهم!

هادئًا كان منصور، وكأنه يدرك، أن ذلك اليوم مختلف عن بقية الأيام، وأن أيّ تصرّف غير لائق، يصدر عنه، سيسلبه ذلك الفرح الغامض الذي يحسّ به، ولكنه لا يستطيع أن يعرف سببه.

حين خرجت بربارا، ومنصور إلى جانبها، يرتدي بدلته الجديدة، كان أشبه بعريس، جميلا، كما لو أن الملابس الجديدة مرّت على وجهه كلمسة سحرية، فأصبح وجهه أصفى، وغدت قامته سليمة، كأنه لم يهوِ من الجرسيّة.

دسّت كريمة رأسها داخل كيس الكاميرا الأسود لتلتقط الصورة، وكأنها تختبئ من حزن هبّ فجأة. لاحظ القسّ سعيد أن ابنته لم تُخرج رأسها، كما تفعل عادة حين تلتقط صورة لهم، ولكنه لم يجرؤ على مغادرة مكانه، وعندما فعل أخيرًا، أشارت له كريمة أن لا يتحرّك، فتراجع الخطوة التي خطاها.

كان لا بدّ لها من أن تُخرج رأسها في النهاية، فعلتْ، استدارتْ وسارتْ باتجاه بوابة الميتم.

كان طيف حزين يشبهها يلحق بها للداخل.

* * *

في بدايات شهر آب من ذلك العام، وصل إلى بيت لحم التاجر يوسف فارس من لبنان، الذي فقد زوجته بعد أن أنجبت طفلا.

لم يُلفت يوسف، الذي تربط أهله علاقة بأهلها، انتباه كريمة، كان عابثا لم يستطع الحزن إخفاء اندفاعه للهو، والعبث، في وقت كانت فيه كريمة ذات شخصية هادئة، كوَّنها وقوفها خلف الكاميرا بصرامة الجندي، ورقّة الفنان ونباهته.

تأمّلها يوسف في ذلك اليوم تصعد إلى سيارتها، بعد أن وضعت الكاميرا في داخلها، وقبل أن تختفي عن الأنظار، قبل أن تبلغ الكنيسة، التفتَ إلى القس سعيد، وقال له بصورة أدهشته: سأكون فخورًا لو تفضَّلتَ وقبلتَني زوجًا لابنتكم، الآنسة كريمة.

ارتبك القس سعيد، ووجد نفسه، يستدير لينظر صوب الجهة التي كانت فيها سيارة كريمة، كما لو أنه يطلب عونها.

كانت السيارة قد اختفت.

نسمة فرح

لم يكن اللهيب هو ما ينقص شهر آب، في ذلك العام، فهو آب اللهّاب، كما يعرفه أهل فلسطين، لكن النسمة التي هبّت في آخر أيامه لم تفتح أبواب الفرح لكريمة وحدها، بل لكل الأسرة. تغيرت بربارا، وتحسّنت صحة كاترينا. أما ليديا، ابنة الثالثة والعشرين، فكانت الأكثر سعادة، وقد منحتْها دفقة الفرح بزواج أختها هالة من ضوء، سكنت قلبها وأضاءت ملامحها، فبدت وكأنها في السادسة عشرة من عمرها.

القس سعيد كان أقلّ تفاؤلا بالزواج، إذ لم يستطع يوسف أن يدخل قلبه، كان أخفّ من أن يكون زوجًا يُعتمد عليه، لكنه لم يستطع رفْض طلبه، بعد أن وافقت كريمة، ووافقت الأمّ، وكاترينا وليديا، وهكذا تَرك المستقبل للمستقبل. وحينما هبط الليل، وتزايدت حلكته، وجد القس سعيد نفسه خلف الأورغُن، حتى دون أن يفكر في ذلك، سمعتْه كريمة، ومع أنه كان يعزف أجمل الألحان وأرقّها، إلا أن قلبها انقبض، وهي تستمع إليه جالسة في الساحة الصغيرة العالية، أمام بوابة الكنيسة، منتظرة اللحظة التي سيتوقف فيها العزف.

حينما انتهى، تبين له أن وقتًا طويلا مرّ عليه وهو يعزف. نفض رأسه، مسح وجهه ولحيته براحة يده اليمنى مرتين، همس لنفسه أن عليه أن يفرح بزواج ابنته، إذ لم يكن من المعقول أن يرفضَ يوسف، وهو أول شخص يتقدّم لطلب يد واحدة من بناته. وعبَرَه أمل وحيد، أن يكون له حفيد؛ وللحظة تخيله يتراكض بين غرف البيت ويلهو. ابتسم القس سعيد، وقال: ولعل هذا الزواج يفتح الطريق لزواجين قادمين، فمَن يعرف؟!

أما الأيام، التي كانت تتنصَّتُ على ما يدور في داخله، فستُبدي له، أن المستقبل الذي اقتسم الأمل معه، سيمنحه نصف أحلامه، وسيسرق نصفها الآخر!

* * *

كان الزواج أسرع من أن يتيح لهم مناقشة أي ترتيبات بعده، وهكذا، ما إن عادت الحياة إلى مجراها، وبدأت كريمة بتفقّد الكاميرا، وتعتذر لها عن انشغالها عنها، حتى سألها يوسف:

- كأنك تفكرين في العودة إلى العمل؟!

- أنتَ تعرف، ليس هنالك شيء عليّ أن أفعله أكثر من العودة إلى العمل.

- هنا؟ في فلسطين؟

- لا أظنكَ تفكّر في أن أذهب لأعمل في مكان آخر!

- بالطبع. لبنان؟

- أنت تعرف أن من الصعب عليَّ ترْك أهلي هنا، كما أن السُّمعة الجيدة التي عملت طويلا للحصول عليها، ليس من السّهل التّـخلّي عنها. وأصارحك، أن أبدأ من جديد، في مكان جديد، فهذا يبدو لي مستحيلا.

أدرك يوسف أن من العبث المضيّ في ذلك الحديث، فهو يحمل بذور خلاف قد تنمو بصورة لا يتخيّلها إلا الشرّ نفسه، إذا ما تواصل، في وقت لم يكملا شهر عسلهما.

استغربت كريمة الطريقة التي توقّف عندها الحوار. أحسّتْ أن يوسف لم يواصل لأنه حسم الأمر، بل لأنه توصّل إلى قرار يتعلّق ببقائه في بيت لحم.

قبل أن يحدث أيّ تغيّر في جسدها يشير إلى تحرّك حياة جديدة فيه، حشر يوسف ملابسه في حقيبته، وقرر العودة إلى لبنان.

في تلك اللحظة، دهَمَ الخوفُ قلب كريمة، وهزّه بعنف: ماذا لو لم تكن حاملا؟! لكن الطلب منه أن يبقى أيامًا أخرى، كان سيبدو طلبا مبالغًا في تذلّلـه، فلم تجد كلامًا تقوله، صمتت.

من الغريب، أن ما أحست به كريمة، أحست به بقية الأسرة، وحين هزّت كريمة رأسها، ودعتْه لأن يستقل السيارة لتوصِله إلى مركز المدينة، لينطلق من هناك بسيارة أجرة إلى حيفا، ومن بعدها إلى لبنان، كانت على يقين، بأن زواجها انتهى، حتى لو استمرَّ إلى الأبد.

راقبت الأسرة، من شرفة البيت الكبيرة، السيارة تبتعد، مرت بالكنيسة التي كانت على يمين الطريق، وحين اختفت، انزلقت دمعتان كبيرتان على خدَّي بربارا، في الوقت الذي استدار فيه القس سعيد، ودخل المنزل، ليظهر بعد قليل في الطريق متوجّهًا إلى الكنيسة.

* * *

استجمعت بربارا نفسها بعد يومين، حين رأت كريمة تفعل كل تلك الأشياء التي تشير إلى أنها ستعود للعمل.

- الأوضاع لم تهدأ بعد، ولا أظن أن عودتك للعمل مناسبة في هذه الفترة!

- سأقول لك ما قلته ليوسف: ليس هنالك شيء عليّ أن أفعله أكثر من العودة إلى العمل. قلت له هذا حين كان هنا، أما الآن وقد غادر، فسأضيف، إن العودة للعمل هي أفضل وسيلة لكي أنسى ما حدث، وأبتعِد عن أسئلة الناس وفضولهم.

- كل هذا صحيح، ولكن هناك شيئًا مهمّا عليكِ أن تفكري فيه، ذلك الذي في بطنك.

- لا أظن أنني سأرضى أن يقيّدني، حتى قبل أن أعرف إن كان موجودًا أو غير موجود.

- بل قولي إنه موجود ليوجَد بعون الرّب.

- تعرفين يا أمي، أن لا شيء يهمّني في هذه الحياة أكثر من أن يكون موجودًا، ولكنني أعدكِ، إذا ما تأكّد الأمر سأكون حريصة، بل أعدكِ بأنني سأكتفي بالعمل هنا في بيت لحم وحدها، إلى أن أراه يقف على قدميه، ويمشي.

- أحبكِ أكثر حين تتحدثين بثقة هكذا.

- ولكنني لست على ثقة من أي شيء، فأنا قلت: إذا.

- بل قلتِ: إلى أن أراه يقف على قدميه. لا أعرف ما الذي أوحى لكِ بأنه ولد، ولكنني متأكدة الآن من أنه هنا، واقتربت بربارا من ابنتها وتحسستْ بطنها كما لو أنها تحلم.

* * *

تأكُّد كريمة من أنها حامل، محا الذكرى الأليمة لغياب يوسف، وما إن حلّت نهايات تشرين أول، أكتوبر، حتى تحوّل الخريف في أعين أفراد الأسرة إلى ربيع راحت فيه أوراق الشجر التي تساقطت ترتفع من جديد عائدة إلى أمّها الأغصان، خضراء، كما لو أنها ولدت للتو. واختفى ذلك الفضول الذي استولى عليهم جميعًا، لمعرفة الحديث الأخير الذي دار بين كريمة ويوسف، حين أوصلتْه بسيارتها.

ومع منتصف تشرين الثاني، نوفمبر، كانت الأسرة قد بدأت تهيئ نفسها بفرح غامر، وكأن الطفل القادم هو أول طفل في حياة البشرية.

في الأشهر التالية اشتد البرد، فعادت نوبات السّعال تهزّ قامة كاترينا، وبعد أيام، بدأت بربارا تسعل أيضًا، فطلبتا من ليديا وكريمة، أن لا تقتربا منهما.

عادت خطوات المرض تُسمع بوضوح في الليالي، وضاعف اتساعُ البيت صوتَ تلك الخطوات، وبدل أن تصحو كاترينا صارخة: أهربي يا ليديا، أهربي، أصبحت تدعو كريمة للهرب أيضًا.

في نهاية ذلك الشتاء البارد، كان القس سعيد على ثقة بأن الموت سيمرّ ببيته، لكنه لم يكن قادرًا على معرفة من سيختطف، زوجته أم ابنته.

لكن الأمّ لم تكن تريد أن تغادر العالم قبل أن ترى حفيدها، حفيدها الذَّكر، فراحت تقاوم أكثر فأكثر، وفي داخلها بريق وحيد يبدّد عتمة الموت الزاحفة: رؤيتها لحفيدها، ورحمة الربّ التي لن تسمح بأن يحترق قلبها إذا ما ماتت كاترينا قبلها.

راحت بربارا تجمّع نفسها، تحتشد، لكنها كانت غاضبة، ولم يكن ينقصها في ذلك اليوم سوى أن تسمع صوت سيارة، صوتًا تعرفه. حملت حجرًا، وحين وصلت إلى أعلى الدرجات وألقت به

نحو سيارة الجنود العابرة، كانت تريد أن تصيح: وهذا من أجْلي! لكنها صاحت، وهذا من أجل كريم وكاترينا أيضًا، وقذفته، وأصاب.

* * *

لم تمت بربارا، ولم تمت كاترينا، وولِد سمير.

وبعد أشهر، بعد أن اطمأنت بربارا أن صحة المولود جيدة، عاد لها السّعال من جديد بصورة أعنف. كانت تودّع كل من حولها، كل ما حولها، ولكن أكثر ما كان يؤلمها، أنها لم تتمكّن من احتضان حفيدها؛ كان خوفها عليه، من مرضها، أقوى بكثير من ذلك الشّغف الذي سكن كل خلية من جسدها، لكي تحتضنه، أو تقبّله، ولو لمرّة واحدة، والتفتتْ إلى السماء وقالت: مرة واحدة، واحدة فقط، أهذا كثير؟!

نبع المستقبل.. بحر الماضي

بدأ سمير محاولات الوقوف، بمساعدة أمّه. تعلّق به جده، وكلّما ذهبت كريمة إلى سريره، ولم تجده، عرفت أنه في غرفته أو في غرفة ليديا.

- أعرف أنكِ تريدين من ابنك أن يمشي الآن، لكن الأمر لم يزل مبكرًا، ثم إن عليك أن تتذكّري دائما، حينما يبدأ ابنك بالمشي، لن يتوقّف عن الابتعادِ عنكِ، قال والدها.

- سمير سيظل يمشي باتجاهي.

- ليت الأبناء يفعلون ذلك، فهناك أمّ أخرى تدعوهم، أقوى منك ومنّي، إنها الحياة.

* * *

.. ولم تتوقّف ليديا عن مغافلتهم للانفراد به، ومغافلة جدّه، بحجة أنها تريد أن تخفّف عنه العبء، كان القس يبتسم، ويقول لها: ولكن ألا يتعبكِ سمير؟

- أنا؟ لا، أبدًا.

بدأت كريمة تتأمّل وتبحث في فنها أكثر، مع توافر تلك العناية. راحت تجمع الكتب عن المصورين، وتقرأ أكثر عن أعمالهم. اكتشفت أن هناك نقدًا متخصصًا في التصوير الفوتوغرافي، وساعدتها معرفتها بالألمانية والإنجليزية أن تعرف اتجاهات التصوير أيضًا، والخصائص التي ظهرت في أعمال أهمّ المصورين، لكن ما لم يُشفِ غليلها نقد التصوير الذي كانت تقرؤه، إذ لم يكن يختلف كثيرًا عن نقد اللوحات الفنية.

* * *

.. وبين انشغالاتها بالقراءة ومتابعة الأخبار، ورعاية ابنها، كانت كريمة تتوق لأن ترى سمير يمشي، لتعود إلى العمل من جديد، كما وعدتْ أمها. أمّا في مجال التصوير، فكان سمير اختبارها الأصعب، إذ ليس من السهل التقاط صورة لطفل دائم الحركة والتلفّت، والعبث بقدميه وشعره طوال الوقت، لكن كريمة التي أنفقت الكثير لتحصل على صورة واحدة، جيدة، لابنها، كانت لا تملّ، فهي تعرف أن اللحظة التي لا تستطيع أن تُمسِكَ بها الزمن، بالكاميرا، لن نستطيع استعادتها أبدًا.

بعد أشهر صيف طويلة، كانت تمضيها في الحديقة مراقِبةً ابنها يحبو، وهي تقرأ وتقارن بين الصور التي تراها، وتلك التي في ذاكرتها، والتفكير في هوس الفنانين، الذين أمضوا عمرهم يجرّبون ويجرّبون، طوال عقود، كي يرسموا الإنسان تمامًا، كما هو، تمَّ اختراع الكاميرا، وتزلزل كل شيء، فهذا الاختراع يستطيع في جزء من الثانية أن يختصر شهورًا طويلة من العمل يُمضيها الرسامون في إنجاز أعمالهم، ويُمضيها الأشخاص، الذين هم موضوع الصورة، متيبّسين في أماكنهم، غير قادرين على التحرّك.

لكن أكثر ما كان يفرح كريمة، في علاقتها مع الكاميرا، أن اختراع الكاميرا اختصر مراحل زمنية كثيرة كان يمكن أن تستغرق جزءًا كبيرًا من حياتها، لو لم تكن اختُرعت. كانت ترى نفسها مثل ذلك الذي قفز من صهوة الحصان، ليقود طائرة! لقد ولِدتْ، فوجدت الكاميرا في انتظارها.

أجل، مع الكاميرا حلّقتْ، دارتْ في الهواء، تقلّبتْ، غاصتْ، لامست الأرضَ وارتفعتْ. هي لا تستطيع أن تنسى مشهد تلك المعركة الجوية بين طائرة ألمانية وطائرتين إنجليزيتين. كانت المعركة، التي يبدو أنها اشتعلت فوق القدس، وتواصلت حتى سماء بيت لحم، في الثاني والعشرين من تشرين الثاني نوفمبر 1917، أغرب مشهد رأته في حياتها؛ إذ راحت، وهي الشابّة، تتقافز في الهواء بفرح، وهي تتابع الطائرات تلتفّ وتُناور وتُطلق الرصاص. كان المشهد بالنسبة لسكان المدينة، أفضل عرض جويّ ممتع، نُظّم كي ينسيهم ويلات الحرب! لم يكونوا معنيين وهم يراقبونه، مَن يحاول إسقاط مَن، ومن سينتصر في النهاية، كان المشهد هو اللعبة الوحيدة التي منحتْهم إياها الأيام السوداء للحرب، وهكذا ظلّوا يتحدّثون فيه لزمن طويل، إلى أن اكتشفوا أن ذلك العرض الجوي الباهر، لا يمتُّ بصِلة للواقع المأساوي الذي سيترتّب عن وقع أحذية الجنود على الأرض.

لكن تحليق كريمة كان مختلفًا، فرحٌ في السماء، وغبطةٌ في الأرض.

* * *

قبل نهاية السنة الأولى من عمر سمير، وصل والده من لبنان، كان يبدو في وضع مُزرٍ، مُتعَب، شاحب، مع آثار نحول احتلت ملامحه، كشخص مريض.

لو كانوا رأوا مشهده قبل عشرين عامًا، لتحدّثوا واستفاضوا حول متاعب السفر، لكن الأمر لم يكن كذلك مع وجود خط للقطارات، وسيارات صغيرة وباصات حديثة، بل وطائرات، تتنقّل يوميًّا بين فلسطين وما جاورها من بلدان.

التصق سمير بعنق أمّه حين حاول يوسف، والده، افتعال ضحكة وهو يفتح ذراعيه كما لو أن الصغير ينتظر ذلك منذ أن ولِد، ليقفز في الهواء ويستقرَّ في حضن أبيه. ولم يكن القسّ سعيد سوى صورة عن تلك المخاوف التي مسّت قلبَ حفيده، فحين صافح يوسف، وجد أن من الصعب عليه أن يعانقه؛ كانت طبقة سميكة من الجليد قد تراكمت، وظلّ سُمْكها يتزايد، رغم مرور صيفين حارقين على بيت لحم، وفلسطين كلها.

في المساء، حين اجتمعوا على مائدة العشاء، أصبح القس سعيد متأكدًا من أن شخصًا يصل متأخرًا، سنةً، عن مولد ابنه، وعلى تلك الهيئة، لم يأت إلى بيت لحم ليُكفِّر عن ذنوب اقترفَها بحقّ أسرته، بل لارتكاب ذنوب أخرى.

كانت الأخبار التي تأتي من لبنان، تتحدّث، باستفاضة، عن تبديد يوسف لكل ما بين يديه من ثروة، وما تحت قدميه من أرض أيضًا. وهكذا، كان القس سعيد يعرف أن هذه الزيارة لن تلمّ شتاتَ الأسرة بقدر ما ستبعثرها أكثر.

* * *

كان عليهم أن يطيلوا السّهر باحثين بصمت، وهم يسترقون النظر إلى وجوه بعضهم، عن السؤال الذي يقلقهم: أين سينام يوسف؟

في النهاية، كان لا بدّ من أن ينهضوا، وأن يتركوا للدقائق التالية أن تقرِّر ما سيحدث. لكن الدقائق كعادتها لم تتدخّل، بقيت تأتي من نبعِ المستقبل الغامض، وتسيل وتتلاشى في بحر الماضي الذي يتزايد عمقًا واتساعًا مع كل لحظة تمرّ.

ساروا في الممرّ، غير قادرين على أن يقولوا شيئا، ساروا بصمت، وحين انعطف يوسف يمينًا باتجاه غرفة زوجته، الغرفة التي وضع حقيبته فيها ما إن وصل، راح سمير يبكي عندما رأى ذلك الرجل الغريب يدخل غرفته وغرفة أمّه.

استدار يوسف محاولا تهدئة سمير، لكن الطفل تشبّث بعنق أمّه أكثر.

اقترب يوسف ليطمئن ابنه، لكن بكاء سمير تصاعد.

في تلك اللحظة، تدخّل القس سعيد وقال:

ـ لا أظن أن الطفل سيتركَكَ تستريح هذه الليلة، أنت القادم من سفر طويل! ولذا، من الأفضل أن تنام في غرفة أخرى، وكما ترى، يمكنك أن تختار الغرفة التي تريد، فالبيت واسع.

* * *

في صبيحة اليوم التالي، لم يستطع يوسف أن يخبئ ما جاء من أجله حتى المساء، أو ليوم آخر، وساعده خوف سمير منه أن يتحدّث عن أُسرة يجب أن تعيش تحت سقف واحد.

من الداخل، كان سعالُ كاترينا يأتي متقطّعا.كأنه احتجاجها على ما يدور في صالة الضيوف الفسيحة.

ـ لم تأت لزيارتنا لأنك مشتاق إلينا، قال القسّ سعيد، بل لأن هناك أمرًا ما تفكّر فيه، أم أنني مخطئ؟

أطرَق يوسف، ثم رفع رأسه ونظر إلى كريمة أولا، وكأنها هي التي تحدّثتْ، وقال:

ـ أظن أن عليكِ أن تعودي معي، أنتِ والولد.

ـ اسمه سمير! قالت كريمة. ولماذا لا تقيم هنا أنت؟

ـ لأن أعمالي هناك بحاجة إلى من يُديرها.

ـ لكن الأخبار التي وصلتْنا من هناك تقول إنه لم يعد لديك أعمال تُدار، فكيف يمكن أن ترتّب معيشة ابنك وزوجتك؟ سأله القسّ سعيد.

- هي أزمة عابرة، وبعدها سيتحسن كلّ شيء.

- ما دامت عابرة، فأظنّ أن من الأفضل أن ننتظر حتى تعبر تمامًا، قبل أن نعود معك، علّقت كريمة.

- أفهم من هذا أنكم جميعا ترفضون اجتماع أُسرتي من جديد! قال يوسف بغضب.

- أبدًا، فأفضل ما يحدث أن تجتمع أسرتك من جديد، لكن الوقت لا يبدو ملائما لكي يحدث ذلك. قال القس سعيد، وهو يحسّ أنه يتكلم بلسان ابنته وقلبها.

نهض يوسف، سار نحو الغرفة التي نام فيها في الليلة السابقة، وبعد دقيقتين، لا أكثر، سمعوا بابا يُفتح، ويُغلق بقوة، ومن النوافذ المطلّة على الشارع المؤدي إلى الكنيسة، رأوه يسير ببطء فرضَهُ عليه ثقلُ حقيبته، دون أن يلتفت وراءه.

بسرعة، دخلت كريمة إلى غرفتها، وبسرعة خرجت. سمعوا محرّك سيارتها يدور، فأدركوا أنها تريد اللحاق به.

لحظات، وظهرت السيارةُ في الشارع، راقبوها إلى أن توقّفت بجانب يوسف الذي واصل سيره غير عابئ بصوت السيارة التي اقتربت منه. تجاوزته السيارة، وتوقّفت، فتوقّف يوسف.

كان الحوار الذي دار بينهما واضحًا، كما لو أنه لا يدور على بعد ثلاثمائة متر.

لم يقبل يوسف أن يصعد إلى السيارة بسهولة. ترجّلت كريمة، تناولت الحقيبة من يده، فتحت الباب الخلفي ووضعتها في صندوقها، وعادت لمكانها خلف المقود.

لم يتحرّك يوسف، وثانية، فهموا دعوة كريمة له لأن يصعد، رغم أنهم لا يسمعون شيئا.

صعد في النهاية، انقبض قلب القس سعيد، أحسّ أن ابنته مُقدِمة على ارتكاب أكبر أخطائها.

لكن كريمة لم تستدر عائدة، مع أن الفسحة الترابيّة بجانب الطريق كانت تسمح لها بذلك. انطلقت السيارة من جديد، حاذت الكنيسة، وبدأت تنحدر إلى أن غابت عن الأنظار.

* * *

ابتعدت ليديا حاملة ابن أختها، اختفى صوتاهما، ولم يبق سوى سعال كاترينا، في وقت كان القس سعيد قد قرر أنه لن يُغيّر مكانه قبل أن يرى سيارة كريمة عائدة.

بعد نصف ساعة ظهرت، ولما يزل واقفًا في مكانه كان. بدأت نبضات قلبه تتسارع، كلما اقتربت السيارة أكثر. بصعوبة كان يحاول التأكّد من وجود يوسف، أو عدمه، داخلها، لم يستطع.

دارت السيارة، دخلت كراج البيت. لكنه لم يتحرّك. لم يكن يريد أن يجد نفسه وجها لوجه مع زوج ابنته مرة ثانية، ليخوض الحوار الذي خاضه معه.

واصل تحديقه إلى الطريق، ولا شيء يراه سوى ابتعاد يوسف أكثر وأكثر، محاذيا الكنيسة، ومختفيا خلفها، كأن كريمة لم تتوقف له، ولم تقلّه.

وما هي إلا لحظات، حتى سمع وقْع خطواتها تصعد الدرج، تقترب.

قلب يعدو كحصان

"ظل الإنسان يرسم إلى أن أصبحت لوحته كالصورة تمامًا، ثم بدأ يصوّر، ولن يهدأ، قبل أن تصبح صورته كاللوحة تمامًا، ولكن ما يحزنني أن الصورة تسير على قدمين هما الأبيض والأسود، وما جاورهما، بينهما، في حين أن اللوحة ما زالت، رغم اختراع الكاميرا تسير على ألف قدم من ألوان لا تنتهي."

كانت كريمة تدوّن ملاحظتها تلك في حاشية كتاب (تاريخ الفوتوغراف) الذي أصدره متحف نيويورك للفن الحديث، ووصلتْها نسخة منه مع قسّ، زار بيت لحم أكثر من مرّة، وتربطه بأبيها علاقة صداقة طويلة.

في ذلك اليوم، ذلك الضحى، كانت كريمة ترفع رأسها، تتأمل ابنها الذي يحبو على الأرض، وتتمنّى أن يسير، مع أنها تعرف أن ذلك اليوم لم يحِن بعد.

عادت لتغرَق في كتابها، كانت تقرأ بحماسة، وكأنّها تناقش، وحين رفعتْ رأسها مرة أخرى، رأت قدمين تهتزّان، للحظات، ثم تنطلقان في خطى غير منتظمة، نحو شجرة الليمون في منتصف حديقة المنزل.

توقّف قلب كريمة للحظات، قبل أن يتسارع نبضها كحصان، وتحسّ به على وشك مغادرة صدرها.

أيكون صغيرها قد سمع تمنّياتها، ما قالته لنفسها؟!

لم تتحرّك، بقيت مكانها، كما لو أن أجمل طيور العالم حطّ على كتفها، ولا تريد له أن يجفل، ويبتعد.

سمير الذي لا يعرف شيئًا عن تلك الأحاسيس التي تتماوج في صدر أمّه، أمسك بجذع الشجرة حين وصله، احتضنه، ثم ببطء استدار وأسند ظهره للجذع. في تلك اللحظة التقتْ عيناه بعينَي أمه، ابتسم، كان راضيًا عن نفسه، وسعيدًا باكتشافه أن قدميه يمكن أن تتحرّكا وتبتعدا به مثل أقدام أولئك الكبار الذين يتحرّكون حوله.

تردّدت كريمة، هل تدعوه لكي يتقدّم نحوها، أم تتركه يفعل ما يريد؟ لكن كل شيء فيها كان يتمنّى أن يسير، أن يؤكّد قدرته، حتى تُوْفي كريمة بوعدها الذي قطعتْه لأمّها، أن لا تعود للتصوير قبل أن يمشي.

لم يتحرّك سمير، فبدأ عرَق ينزّ من جسدها، كريمة التي أحسّت طوال فترة الحمل والرعاية، أنها مثل طائر فقد جناحيه، وكلما كانت ترى صورة جميلة لمصوّر فلسطيني، أو مصوّر قادم من خارج بيت لحم، توشك أن تبكي. لقد أدركت في تلك الفترة أنها تحبّ التصوير، لا تمارسه وحسب، ولو لم يكن حبّها لابنها يفوق حبها الأول، لنكثت بوعدها لأمها، بخاصة بعد أن رأت أن أجمل متع ليديا في الدنيا رعاية سمير.

لم تكن عينا ابنها تنظران إلى وجهها، بقدر ما كانتا تغوصان في رأسها. أحست كريمة بذلك، لكنها لم تكن تريد أن تغشّ؛ كانت دعوته لأن يسير، أو مساعدته، شكلًا من أشكال الغش، كي يصبح الوعد الذي قطعتْه لأمّها وراءها إلى الأبد. كريمة التي طالما ردّدت: إذا كان علـيّ أن أختار بين ماض جميل ومستقبل أقلّ جمالا، سأختار المستقبل الأقلّ جمالا، لأنه المكان الوحيد الذي أستطيع أن أعيش فيه.

قالت ذلك لأمّها، حين رأتها تنهار بانهيار أعمدة قلبها، أولادها، واحدًا تلو الآخر، داعية إياها أن تحافظ على من تبقّى لها من تلك الأسرة، الأسرة التي كانت كريمة ترى بأنها ضحية مباشرة لتلك الإمبراطورية التي لم تتوقّف عن نعتِها، كما ينعتها أبوها: إمبراطورية الظّلام. فمنذ أن اعتُقل كريم على يد جنودها، كانت الإمبراطورية قد قتلتْه، وظلّت حريصة على مواصلة القتْل، ومن يعرف، الآن، من التالي، بعد كريم وأمّها، هل تكون كاترينا، ليديا، أبي، أنا، سمير؟

انقبض قلبها أكثر، نفضت رأسها طاردة كلّ تلك الأفكار السوداء التي زرعتْها يدا الإمبراطورية في عقلها.

ابتسامة سمير الذي لم يتحرّك، محت الكثير مما عَلِق بقلبها، ابتعد بظهره عن الجذع، كما لو أنه يعرف أن أمه بحاجة لخطواته التالية أكثر مما هي بحاجة إلى أيّ شيء في الدنيا. مشى، كانت خطواته أكثر ثقة، ربما لأنه لم يعد يفكر فيها، لأنه كان يفكّر في شيء آخر. وظلّ يسير إلى أن وصل إلى ركبتَي أمّه، استند إليهما، رفع وجهه نحوها، وقبل أن تنهال عليه بالقُبل، سمعت تصفيقًا يأتي من الأعلى. كان القس سعيد يراقب المشهد منذ البداية.

احتضنت وحيدها تُقبّله.

* * *

خائفة كريمة كانت، رغم أن وعدَها لأمها-بشهادة أبيها- قد تحقّق، فلم يبدر عنها ما يشير إلى أنها على وشك العودة لممارسة مهنتها، فنها!

في الليلة الثالثة، قال القس سعيد، وهم يتناولون طعام العشاء.

- لم أكن أعرف أن كريمة يمكن أن تخاف من شيء!

- أخاف من ماذا؟

- من المستقبل، من العودة للعمل.

- لن أقول إنني لست خائفة، فما حدث خلال العامين الماضيين كان كبيرًا. إنني أرى صورًا جديدة، وأسمع عن كاميرات جديدة. أنا لا أختلف عن سيارتي، فقد أصابني بعض الصدأ كما أصابها.

- كريمة، أنا على يقين من أنكِ خلال أقلّ من شهر ستلحقين بأفضل المصورين، وتتجاوزينه، أتعرفين لماذا؟

وصمت القس سعيد لأنه كان يريد أن يسمعها.

- لماذا؟

- لأن لديك قلب حصان، وعينَي صقر، ولمسةَ فَراشة.

ضحكت كريمة، ضحكت من كلّ قلبها، وقالت:

- وشِعرٌ كهذا سيمنحني جناحين على الأقلّ.

* * *

وطارت كريمة، ابتعدت، وكأنها تريد أن تجمع كل ما فاتها من أيام وتمضي بها إلى المستقبل. انطلقت إلى القدس، قبة الصخرة، كنيسة القيامة، وصوّرت، مضت إلى نهر الأردن، اتجهت شمالا إلى طبريا، وصوّرت، اجتازت النهر بسيارتها وذهبت إلى مدينة جرش، وصوّرت، إلى لبنان، وصوّرت، واتجهت جنوبًا إلى عكا، حيفا، يافا، الخليل، وصوّرت. وحين عادت إلى البيت، واحتضنها القسّ سعيد، أدرك أيّ قلبِ حصانٍ ذلك الذي يسكن صدر ابنته.

الجاهل عدُوّ صورته!

حين خطرت له فكرة أن كريمة جزء من قوّة إيمانه، ارتبك القس سعيد، دار حول نفسه كأنه ضُبط بارتكاب خطيئة، لكنّ ما كانت كريمة تحقّقه كان يعطيه، فعلا، قوّة يجابه بها صعوبات الحياة، ويتجاوزها. لم يكن ما حلّ ببيته سهلا، فمنذ أن وضع أول إنجليزي قدمه على أرض فلسطين بدأت مآسيه، وفي وقت كانت الأوضاع فيه تهدأ أو تتفجّر، خارج البيوت أو داخلها، كانت معاناته بسببهم مستمرة.

لم يفكّر في الأمر على أنه اختبار له، وقد كان يمكن أن يعتبره اختبارًا له، لو حدث معه وحده: ولكنه احتلالٌ لبلد، وطن بأكمله، والعبث به، فمرة يجتاحون كل شيء فيه، ومرة يتحوّلون إلى كرماء فيقدّمون الوطن نفسه لمن ليس لهم حقّ فيه، وفي أوقات راحتهم، يقومون بفتح أبواب الهجرة لليهود، ليأتوا، ويأخذوا، هم أيضًا، حصة من أجساد الناس وأعناقهم ولحومهم، ومرة يحوّلون صدور أبنائه حقلا للرماية، ومرة يحولون أعناق شبابه وليمة للمشانق، في وقت لم يتوقفوا فيه يومًا عن إطعام قضبان سجونهم لحوم الناس ولأتفه الأسباب.

لم يكن الأمر اختبارًا له: وليته كان اختبارًا لي وحدي. همس لنفسه. لقد زرعوا ثكنة عسكرية في بيته، ثكنة لا تراها العين، ومنذ أن أورثَ سجنُهم مرضَ السلّ لكريم، يواصل ذلك الدّاء الذي زرعوه في صدره، هجماته على أجساد أقرب الناس إليه ويختطف أرواحهم.

وتمتم بقول يسوع: (لا يجتمع الماء والنار في إناء).

كان، ومعه كل من بقي له، يتوقّعون موت كاترينا، لكن التي رحلت كانت بربارا، زوجته، ولم يكتف المرض بأخذ اثنين، بل واصل طريقه، يشقه بوحشية ريح عاتية كالسكاكين، كالرّماح،

نحو رئتي كاترينا.

القس سعيد لم يكن مطمئنًا من اكتفاء المرض بكاترينا، فالمرض لا يكتفي، هذا المرض لا يكتفي، إنه أخ للموت، وحليف.

كان يراقب كل سعال، مهما كان بسيطًا، برعب، ويخشى على سمير، سمير الذي كان يرى فيه صورة عن نجيب، مرةً، وصورة عن كريم، مرة ثانية، وصورة عن منصور، مرة ثالثة، ويراهم كلهم وقد تجمّعوا ثلاثتهم فيه، مرّة رابعة. أليسوا أخواله، والمثل يقول: ثلثا الولد لخاله. هذا يعني أنه لا يبالغ في هواجسه، فثمة ستة أثلاث تجمّعت في طفل صغير، فكيف لا يكون على صورتهم؟!

في اليوم الذي أصيب فيه سمير بالحصبة، كانت كريمة بعيدة، في حيفا، لم يتّصل بها في دارة ضومط، لم يبلغْها أن سمير أصيب بالمرض، شمّر عن ذراعيه، وبدأ العمل على تلك البثور التي غطت الجسد الصغير، بعد أن أقنع سمير أنه يريد أن يُلوِّنه.

بفرشاة صغيرة، كان يدهن كل حبّة من جسده بالدواء، دون أن يتوقّف عن تسليته، مرّة بأغنية، ومرة بحركة مضحكة، ومرة بتلك الألعاب التي كانت تحضرها كريمة من كل مكان تصِل إليه، الألعاب التي كانت تلتقط له الصور وهي حوله، من قطارات وأحصنة، ودرّاجات، ومراكب صغيرة بأشرعة، وملابس من أجمل وأحدث ما يباع في الأسواق. كانت تريد أن تملأه سعادة، أن تعوّض عن غيابها عنه، وأن لا تترك له في الذاكرة فسحة خالية منها، كي لا ينساها.

لكن حرارة الطفل التي كانت ترتفع، كانت تملأ قلب القس سعيد بالفزع، وعند ذلك، يأتي دور ليديا التي كان سمير يحبها، ويناديها: ماما ليديا، كما ينادي القس سعيد: بابا سعيد. لكن كاترينا التي حرمها مرضها من أن تكون قريبة منه، لم تحظَ بتلك الكلمة التي تمنّتها دائما.

ذلك كان يجعلها تكره مرضها أكثر، فالمرض لم يغلق عليها باب روحها، وحسب، بل أغلق عليها أبواب قلوب أقرب الناس إليها، حين زرع تلك القلوب بأشواك الحذر، الحذر من الاقتراب منها، الحذر من احتضانها.

كريمة التي أحسّت بأنها امتلكت الدنيا، حين أصبح لها سميرها، أصبحت أكثر قوّة. لم تكن تتردد في القيام بكل ما يمكن أن يخفّف من مرض كاترينا.

في الليل، تحرص على أن تكون معها، وأن تنقل لها أخبار البلاد، وكيف تتغلب على حواجز الإنجليز حينا، وكيف يتعبونها أحيانا كثيرة.

كانت أفضل حججهم أنها صحفية، وأن عليها أن تبرز إذنا يسمح لها بالتنقّل والتصوير. أحيانا كانوا يقتنعون بكونها مصورة عادية، حين تخرج لهم ألبوم الصور الذي يرافقها باستمرار، الألبوم الذي يضمّ أفضل الصور التي صوّرتها. لكن وظيفة أخرى للألبوم كانت السبب في إبقائه معها، فحينما لا تستطيع إقناع عائلة أو شخص ما بوجهة نظرها في الصورة التي ستلتقطها له، لأن الصورة يجب أن تشبه روح صاحبها، أن تشبهه وحده؛ كانت تُخرج الألبوم، ليبحث عن شخص يريد أن يشبهه، أو وضعيه ترضيه، للصورة التي يريدها.

بعض الناس لم يكونوا يقتنعون بوجهة نظرها في الصورة الحقيقية التي تشبههم، كل منهم يريد صورة تشبه صورة رآها لشخص آخر، وأحبها، دون أن يدرك أن صاحب تلك الصورة لا يشبهه، ولا الضوء على وجهه يشبهه، ولا الظلّ ولا بريق العينين يشبهانه. كانت كريمة تحاول، وهي تتمتم: الجاهل عدُوُّ صورته، وليس عدو نفسه فقط، وتناوله ألبوم الصور، فيختار وضعًا من أوضاع أحد الأشخاص في صورة، ويقول: مثل هذه!

تستسلم كريمة، وتعيد: مثل هذه إذًا؟! وتصوّره، وفي قلبها غصة أنه أجبرها على أن تستنسخ نفسها، تستنسخ صورةَ التقطتْها. ذلك النوع من الصور لم يكن مصدر سعادة لها، ولذلك لا مكان له في ألبومها الخاص.

الجنود الإنجليز، لم يروا في تلك الصّور ما رأته كريمة فيها، إنهم يتعاملون معها كما لو أنها بطاقة هوية، تسمح لحاملها بالمرور أو لا تسمح له. لكن الألبوم كان مفيدًا دائما، فإن لم ينفع مرّة، ينفع مرة أخرى.

* * *

.. وكانت كاترينا تحب صحيفة الكرْمل، ولو عرف القس سعيد مدى تعلّق ابنته بتلك الصحيفة، وكيف تمنحها القوة، لأدرك أنه لم يرتكب خطيئة حين أدركَ أن كريمة وما تحققه من

نجاح جزء من إيمانه.

كانت مقالات رئيس تحرير الكرمل، نجيب نصار، تجعلها تقفز في السرير لتصارع العالم، فتهاجم المتخاذلين والمتعاونين ومن لا يرون الأخطار المحدقة بهم، وبوطنهم.

تلك المقالات كانت تجعلها أقوى، وحينا تملؤها أسىً:

(وطنكم أيها الفلسطينيون، أتتخلّون عنه لليهود؟) يكتب نجيب، بعد اثني عشر يوما من انطلاق الثورة الكبرى.

كانت كريمة تسمع الإجابة، تسمع كاترينا حين تقول بصوت عال وهي تحدّق في الصحيفة: لا، كما لو أنها في مظاهرة.

القس سعيد كان يسمعها ويأتي مهرولًا يسأل: ماذا حدث؟

فتجيبه كريمة ضاحكة: كاترينا عاملة مظاهرة.

يبتسم، ويسألها:

- متى تتوقّعين أن تنتهي المظاهرة كي أتمكن من قراءة الصحيفة؟ فتجيب كريمة:

- المظاهرة في أولها.

يسير القس سعيد مبتعدًا، وتعاوده الفكرة من جديد، بصورة أقوى: إن كريمة جزء من قوّة إيمانه. هذه البنت التي لم تتنازل عن أحلامها، البنت التي حملت رمحها وقاتلت رياح الجهات الأربع. مثل كلّ أولئك الذين يذكروننا دائما بقوّة الحياة، وحين يستعيد صوت كاترينا هاتفًا ووجهها المتورّد، يعرف أن كريمة لم تبتعد عن البيت لتعود مُرهقة، تبتعد عن البيت، لتعود ممتلئة بالحياة، ولتملأه وتملأ البيت بالحياة.

مفاجآت القس شتيفان!

عند ظهيرة يوم الأربعاء، العشرين من أيار، عام الثورة[9]، وصل من برلين قس ألماني أسمه شتيفان غونتر، أمضى عدة أيام في بيت لحم، على أمل أن يواصل طريقه إلى الناصرة، لكن اندلاع الثورة، وبدء الإضراب الكبير، ألزماه أن يبقى في المدينة.

بعد عشرة أيام من وصوله، وأثناء تناوله طعام الغداء في بيت القس سعيد، التفتَ إلى كريمة وقال:

- للأسف لم ألتقِك في المرّة الماضية حين زرتُ بيتكم، ولكنني لم أنس ما سمعته بأنك مصوّرة مشهورة في فلسطين. ولذا جئت لك بصحيفة يهودية ألمانية نشرت مجموعة من الصور لمصوِّر يهودي اسمه موشيه نوردو[10]، ومن بينها صور لبيوت وقصور كبيرة، وجميلة في بيت لحم، أوضحت الصحيفة أنها تعود لليهود الأوائل الذين هاجروا إلى فلسطين، واستطاعوا بناءها لتكون بيوتًا جاهزة لاستقبال المهاجرين اليهود من كل مكان!

- أي بيوت تلك التي لليهود في بيت لحم؟! سألت كريمة باستغراب.

- عليك أن ترَي الصّور، لهذا أحضرتها!

سألته كريمة عن الصحيفة، فقال إنه سيعطيها إياها مساء، إذا مرّت بالبيت الملحق بالكنيسة، البيت الذي كان سكنًا للقس سعيد وعائلته قبل انتقالهم إلى البيت الجديد.

حين انتهى الغداء، ووقف مودّعًا، سارت كريمة معه. في البداية ظنّ أنها تفعل ذلك، من باب الأدب، تريد أن توصله إلى الباب الخارجي، لكنه حين تجاوز العتبة، تجاوزتْها معه. التفتَ إليها:

- سأسير معكَ حتى الكنيسة. الصحيح لا أظنّ أنني سأنتظر حتى المساء لأرى الصّور التي تحدَّثت عنها. قالت له.

- كما تريدين، رفْقَتُكِ تسعدني.

في الطريق القصير، أجابت كريمة على أسئلته، عن تعلّمها التصوير وممارسته، والمشكلات التي تواجهها كمصورة في هذه البلاد وهي تتنقل من مدينة لمدينة، وحين سألها عن الأشياء التي تحبّ أن تصورها، أجابت: الناس، النساء، الأطفال، الأُسر، الطبيعة. منذ البداية أحسّ أن التصوير هوايتي ومهنتي في آن، وحينما أتعب من العمل في الأستديوهات الخاصة بي، أهرب من التصوير إلى التصوير، فأصوّر في المدن، الحقول، الشوارع، الكنائس، المساجد. يسعدني كثيرًا أن أعود مساء إلى الأستديو ومعي كل تلك الوجوه التي صوّرتها. قد تستغرب أنني أتعامل معها باعتبار أصحابها ضيوفي.

هزّ القس شتيفان رأسه وقال: هؤلاء لن تجديهم في الصّور التي حدّثتك عنها؛ يبدو أن المصوّرين الذين يأتون إلى هنا، كما لاحظتُ، لا يرحبون بضيوفك في الصّور التي يلتقطونها، فالأماكن دائما خالية من الناس، البيوت، المزارع، السهول، الجبال. سيدهشكِ الأمر.

- سمعت عن هذا النوع من التصوير، ورأيت بعضه، في صور المصورين اليهود، وفي صور ألمان وإنجليز وفرنسيين آخرين.

كانا قد وصلا، حين طلب منها القس شتيفان أن تصبر قليلا عليه، لأن إخراج الصحيفة من مكانها يحتاج إلى بعض الوقت.

- لا بأس، لستُ مستعجلة.

بعد دقائق طالت، عاد حاملا الصحيفة، قال وهو يهزّ رأسه بأسى:

- هنالك أمرٌ لم أقله لكِ، ولم أقله لوالدكِ.

- ما هو؟

- ستكتشفينه حين تتصفّحين الجريدة.

وناولها إياها، وذهب.

* * *

لم يكن صعبًا على كريمة أن تعرف معظم البيوت التي في الصّور، لكن ما لفت انتباهها تلك الصّور التي التُقِطت لقصر جاسر، قصر الجعَّار، الميتم الأرمني، دير الكرمل، المستشفى الفرنسي، وهي من أجمل البيوت والمباني التي زارتها، وصوّرتها. كانت البيوت تقف وحيدة، تنتظر من سيسكنها، كما قالت الصحيفة!

جُنَّت كريمة. وفي طريق عودتها إلى البيت، اكتشفت أنها كانت تبكي، بل تشهق.

سألها والدها: لماذا تبكين؟ هل حصل للقس شتيفان، لا سمح الله، مكروه؟

لم تُجب كريمة، بسطت الجريدة أمامه، فعرف البيوت التي فيها. قرأ التعليق المطبوع بجانب الصّور، وقال (لا يجتمع الماء والنار في إناء)، صدق يسوع عليه السلام.

قلبتْ الصفحة، فتوقّف قلبُ القس سعيد للحظات. كانت صورة البيت الرائع الذي يسكنونه في الصحيفة!

* * *

في ذلك اليوم، عصر ذلك اليوم، قررت كريمة أن تخرق الالتزام بالإضراب العام الذي أعلنته قيادة الثورة، والتزم الناس به، كما سيلتزمون جميعهم بارتداء الكوفيات، حين راحت قوات الإنجليز تطارد الثوار الذين يرتدونها. نزلت إلى الدّور السفلي، دخلت غرفتها، حملت الكاميرا.

- إلى أين؟ سأل والدها.

- عليّ أن أعود للتصوير.

- والإضراب؟

- الإضراب عن العمل، وأنا لستُ ذاهبة لأعمل، أنا ذاهبة لأصوّر قبل أن يسرقوا بيت لحم كلّها.

عودة الحاضرين!

كانت الأحداث تتسارع، والعضُّ على الأصابع يشتدّ، ضاقت الحياة على الناس، لكنهم كانوا مصمّمين على إنجاح الإضراب.

القس سعيد، مع عدد من القساوسة، من بينهم حنا بحّوث وجديد باز حداد، بدأوا يجتمعون في الكنيسة كلّ ثاني خميس في الشهر، في أمسيات إنجيلية لمعالجة قضايا الساعة.

وعلى مدى أمسيات منتظمة ناقشوا: موقف المسيح من الوطن، الصهيونية وأنبياء العهد القديم، موقف مارتن لوثر من اليهودية.

وعلى الجانب الآخر لم يكن المبشّرون الإنجليز والأمريكان يتوقفون عن دعوة اليهود للقدوم إلى فلسطين، فتحوّلت بعض العظات في الكنيسة اللوثرية ضدهم.

القس حنّا بحّوث، في ثاني لقاءات الخميس، قال في عظته: (إن هناك إساءة لاستخدام كلمة الله من قبل المبشرين الإنجليز والأمريكان، إنهم يقولون إن هجرة اليهود إلى فلسطين تتمّة للنبوات، ولكن نبوءات العهد القديم التي جاءت قبل ألف سنة من ميلاد سيدنا يسوع المسيح، لا يمكن إسقاطها على وضعنا اليوم، كما لو أنّ ثلاثة آلاف سنة لم تمرّ، وكما لو أن المسيح لم يأت، ولم يأت العهد الجديد. إن نبوءات العهد القديم قد اكتملتْ بالمسيح، ولا تكتمل بأرض فلسطين.)

وختم عظته: (يا ليت أبناء شعبنا الممزّق، وبناته، يتّحدون لنكون شخصًا واحدًا، رغم قوى الظلام التي تحاول تقسيم شعبنا، القوى التي تحاول أن تؤجّج الحروب الطائفية والدينية، وتزرع

الحقد والكراهية والخصام. من أجل ذلك علينا أن نصلي للوحدة ونرجو من الله أن يمنح شعبنا هذه الوحدة، لأنها أقوى من كل أسلحتهم، أقوى من القنابل، أقوى من الديناميت.)

* * *

كان صدى العظات، التي انتشرتْ، كبيرًا في نفوس أهالي بيت لحم، وبخاصة أن الكنيسة أيضًا كانت وسط حارة عائلة الفواغرة، وهي عائلة مسلمة كبيرة، لها صلة كبيرة بالكنيسة منذ إنشائها. ففي عام 1864، حين قرر اللوثريون بناء كنيسة لهم، لم يجدوا، من المسيحيين المتعصبين، من يبيعهم الأرض، وعندما سمع الفواغرة بذلك، عرضوا عليهم أن يشتروا قطعة الأرض التي يريدون، وما إن اشتروها، حتى أرسلوا في طلب مهندس ألماني، جاء بسرعة؛ ويبدو أنه أثناء رحلته الطويلة من ألمانيا قد وضع المخطط الأوّليّ اللازم للكنيسة. حين رأى الأرض، أجرى بعض التعديلات اللازمة على المخطط، بينما كان يتأمل كنائس المدينة.

كان يريد شيئًا مختلفًا، لكنه في الوقت نفسه، كان خائفًا من أن لا يجد العمال المهَرَة الذين ينفّذون المخطط كما يتمناه على الأرض.

سأل المهندس عن أهمّ ما يميّز مدينة بيت لحم، عن سواها، فلم يجد جوابا شافيًا، وبينما هو يتنقّل في المدينة، انتبه للمرة الأولى إلى غطاء رأس المرأة التلحميَّة: الشَّطوة، وهو طاقية مخروطية. في تلك اللحظة، قرر أن يكون أعلى الجرسيّة على صورة الشّطوة.

الحارة الإسلامية التي بنيت فيها الكنيسة كانت فرحة بتلك الجرسية، التي لا تشبهها أي جرسية أخرى في فلسطين كلها. أما فرحة المهندس فكانت في زوال مخاوفه، حين وجد أن الحرفيين من حجّارةٍ ونجّارين وعمال هم من أمهر من رأى في مجال البناء.

* * *

في تلك الكنيسة العالية، الفريدة، يجتمع المسيحيون والمسلمون في أيام الخميس تلك. كان الاجتماع يمنحهم قوة من نوع آخر، والقس سعيد، يردد قول المسيح في كل مرة: (إذا كنتَ لا تحب أخاك الذي تراه فكيف تستطيع أن تحبَّ الله الذي لا تراه؟!) ويستشهد بقول النبي محمد عليه السلام: (لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه.)

ويختم عظته: أحبّوا بعضكم، فالكراهية تترصَّدكم، تترصَّد أرضكم وزرعكم وبيوتكم وحياتكم وطفولة أولادكم.

* * *

أما كريمة، فلم يعد يهدأ لها بال. ذهبت وصوّرتْ كل تلك البيوت التي صوّرها موشيه نوردو ذاك، وبذلت الكثير لكي تكون صورًا أجمل. كما حرصت أن يكون بجانب البيوت وحولها أكثر عدد من الناس حينما تلتقط الصور، وبعد ذلك، انتقلت إلى داخل تلك البيوت وصوّرت أهلها، في أجمل مظهر، وحين علمت أن طلاب مدرسة السيدة رتيبة شقير[11]، زميلتها القديمة في المدرسة، سيؤدون تمثيلية ميلاديّة في قصر جاسر، قررت أن تكون هي من ستلتقط صورة ذلك الاحتفال.

كانت واحدة من أجمل صور كريمة، حيث وقف عشرات الأطفال وأمامهم تمثال العذراء حاملةً يسوع الطفل، أمامهما مهْدٌ، وخلفهما تمثال لملاك طفل ناشرًا جناحيه. كان الضوء القادم من اليمين، يتخلل بعض أغصان شجرة عيد الميلاد المزدانة بالورود والشرائط الملونة، الشجرة التي تضيء أعلاها نجمة عيد الميلاد، ويضيء ببهاء ورقّة وجوه الأطفال والنساء.

* * *

بعد أشهر من عمل طويل، وقفتْ كريمة أمام القس سعيد، أبعدت كل ما هو موجود فوق الطاولة التي أمامه، ثم نشرتْ صورها فوق سطح الطاولة.

وقف القس سعيد يتأملها، وعبره حسّ غريب، أنه يرى بيت لحم من السماء، بيت لحم الحافلة بمبانيها الجميلة وأناسها، لا من جوار طاولته.

التفت إلى كريمة، وقال لها:

- سأعترف لك بما لم أستطع الاعتراف به بجرأة لنفسي: أنت يا كريمة جزء من قوّة إيماني، إيماني بالله الذي خلق وألهَمَ الناس أن تعمل، وإيماني بالإنسان الذي يرفض أن يستسلم.

عن الماء والنار

كانت البلاد خاوية؛ خالية شوارعها، ساحاتها، ميادينها، حتى ليل الأحد، خالية حتى من أوراق الشجر في مطالع ذلك الخريف، فالريح التي لم تتوقّف عن الهبوب، كانت تسوق كل شيء أمامها، تدفعه بعيدًا، وكأنها تُعد الشوارع لاستقبال العائدين!

وهذا ما كان.

منذ صباح الاثنين، بدأت الحياة تعود من جديد، وبدت الأصوات التي كان الناس يسمعونها قبل الإضراب بصورة عادية، أصواتا عالية، وغدت الشوارع أكثر اكتظاظا، وكيفما التفتَ المرء، في بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور، وما جاورها من قرى ومدن، رأى ما لم يره منذ زمن طويل: (رجالا محمرّة أحداقهم، ملفوحة وجوههم كأنهم راجعون من سفرة طويلة في الصحراء.. أين كان هؤلاء الرجال؟ إن فلسطين كانت ميتة فعاشت، وكانت ضائعة فوجِدَتْ). هكذا كتب المربّي خليل السكاكيني عما رآه.

كان الثوار متعبين، فمطاردة الإنجليز لهم، ضاعفت متاعبهم، وحوّلتهم في كثير من الأحيان إلى مجموعات تصنع المعجزات كي تتواصل الثورة، وكانت الحملات العسكرية الواسعة، لتمشيط البلاد من شمالها حتى جنوبها، ومن شرقها حتى غربها، قاسية، مع قلّة الموارد: السلاح والطعام والأماكن الآمنة.

* * *

لم يكد الثوار يصلون إلى بيوتهم عائدين من الجبال، حتى انقلب الطقس، فهطلت أمطار شديدة واشتدّ البرد، وتدفّقتْ السيول جارفة الأشجار والحقول في الوديان، واستمرّ ذلك حتى مطلع

السنة التالية. كثير من الناس الذين عاد أرباب أسرهم وأبناؤهم من الجبال، كانوا يردّدون: الحمد لله أنكم نجوتم من برد هذا الشتاء! لكن كثيرين لم يكونوا واثقين من أن فلسطين قد نجت حين تمّ الاتفاق على وقف الثورة.

* * *

في أولى جلسات الخميس، ما بعد وقْف الثورة، كانت قلوب الحاضرين موزّعة بين الفرح والخوف، الفرح لأن الثورة استطاعت أن تستمرّ ستة أشهر كاملة، استطاعت أن توجد حقائق جديدة عن قدرة الناس على الصمود والالتزام بكل ما دعت إليه. أما الخوف فقد أحسّه كثيرون.

القس سعيد، في جلسة الخميس التالي أعاد قول المسيح ثانية: (لا يجتمع الماء والنار في إناء.) وها هي الثورة تتوقّف، ولم يزل الماء في الإناء والنار أيضًا.

التفت الحضور إلى القس حنا بحّوث الذي كانت آراؤه شجاعة وحاسمة دائما. قال:

- أحسّ بأنني جئت اليوم إلى هنا لكي أستمع لا لكي أتكلّم، لقد تكلّمت كثيرًا، خلال الشهور الستة الماضية.

وأطرق، بحيث لم يعد باستطاعة أحد أن يطلب منه الكلام ثانية.

عاد الفرح من جديد يطلّ من الأحاديث التي تقاطعت، وهي من المرات النادرة التي تتقاطع فيها الأحاديث.

لم يكن هذا يريح القس سعيد الذي حاول إعادة النظام للجلسة، لكن ذلك لم يدم طويلا. كان الانفعال بالفرح كالانفعال من ثورة توقّفتْ قبل أن تحقق أيًّا من أهدافها الكبيرة، وما زال ثوارها، الذين أُسروا معتقلين في السجون الإنجليزية من شمال البلاد إلى جنوبها.

- لقد قُدِّمت لنا الوعود[12]، فتوقفت الثورة، ولكن، متى كانت وعود الإنجليز صادقة. لقد كان أشهر وعودهم للشريف حسين، أن تتحرّر بلاد العرب، فماذا حصل؟ لقد منحوا هذا الوطن العربي هدية لليهود ما إن اجتازوا الحدود، بل منحوه لهم هدية قبل أن يجتازوا الحدود، واستعمروا وقسّموا ما استطاعوا استعماره وتقسيمه.

- ليس هناك مبرر لأن نكون متشائمين إلى هذا الحدّ، فهُمْ، الإنجليز والصهاينة، يعرفون الآن أن هذا الشعب الذي ثار، يمكن أن يثور مرّة أخرى، وبصورة أشدّ، ولا أظنهم اليوم أو غدا قادرين على أن ينسوا أن هناك ثورة استمرّت ستة أشهر ولم تُهزَم.

لم تكن أجواء الجلسة إلّا مثالا مصغّرًا لعشرات الآلاف من الجلسات في البيوت والنّوادي والمراكز الثقافية والرياضية والمقاهي والمدارس، على شاطئ البحر، في السهول، في الجبال، في ليالي الشتاء الباردة.

* * *

تأمل القس سعيد تلك الفوضى التي عمّت الجلسة، كما لم يحدث من قبل، فأدرك أن الثورة كانت تجمَع، حتى، من لا يجمعهم شيء، وتساءل في نفسه بأسى، ما الذي يمكن أن يُجمّع الناس ثانية بعد توقّفها؟

وقبل أن يبدأ الناس بالخروج، قبل أن يختتم الجلسة، وقد رأى تململَ بعضهم استعدادًا لذلك، قال: لنسمع رأي القسّ حنا، لأنني أظن أنه استمع لما يكفي من آرائنا، بحيث يحقّ لنا أن نستمع إلى رأيه أيضًا.

تململ القس حنا، وقال: لست أدري، ربما من الأفضل لي ولكم أن أخرج صامتًا، كما جلستُ صامتا، فالكلام الذي لدي لا يُطرب أحدًا، لأنه يُقلقني كثيرًا.

كانت كلماته تلك بمثابة جرس، سمعه الجميع، فصمتوا فجأة، وتعالت أصوات متفرقة: نريد أن نسمع ما تفكِّر فيه.

صمت القس حنا، فبدت القاعة وكأنها خالية ممن فيها.

- يقولُ لي قلبي، إن هذه الثورة لم تحدث بين يوم وليلة، لقد أَعدّ لها شعبنا طويلا، سواء انتبه لذلك أم لم ينتبه. إنها حصيلة سنوات، كالبذرة التي ترعاها فتكبر يومًا بعد يوم وتغدو شجرة، إنك تراها تنمو، ولكنك لا تستطيع أن تلاحظ بدقّة كيف تنمو، لكنها حين تحمل أول الثمار لن تستطيع نسيان تلك اللحظة، وهكذا كانت هذه الثورة، لقد زرعها الناس بذرة في داخلهم، وكبرت في ثورة صغيرة هنا، وثورة صغيرة هناك، في غضب على حاجز، أو مركز بوليس، أو شنق إنسان أمسكوا

معه رصاصة أو سكينًا أو منشورًا، أو هدموا بيتا آوى ثائرًا، أو خرج منه ثائر، وفي النهاية كان لا بدّ من أن تكون هناك ثمرة بعد هذا، وهذه الثمرة، كانت الثورة.

وعاد القس حنا إلى صمته، فعلق أحد الحضور:

- لم تقل كل هذا الكلام إلّا لأن وراءه كلامًا آخر.

- صحيح، لم أقله، إلا لأن وراءه كلامًا آخر، وصمت ثانية، قبل أن يضيف: كم من سنة علينا أن ننتظر لتكون هناك بذرةٌ أخرى، وحوادث أخرى، وشهداء، وبيوت منسوفة، وأعناق معلقة، وموجات هجرة أخرى كي نثور ثانية؟! احتملوني إذا قلت إن هذه الثورة كانت فرصة فلسطين الوحيدة لأن تتحرّر في هذا الوقت، ولقد أضعناها، بحيث بتُّ أردّد في نفسي، هل أضعنا فلسطين حين أضعنا هذه الثورة مستندين إلى وعود الإنجليز ووعود زعمائنا العرب الذين يستعمر الإنجليز بلادهم؟ هؤلاء الزعماء الذين، لو كانوا يملكون الحرية لتنفيذ وعد، فالأحرى بهم أن تكون وعودهم لشعوبهم، لأن يحرروها من الإنجليز، لا أن يصبّوا الماء على نار ثورتنا التي لم يستطع الإنجليز إطفاءها بالنار.

وعاد إلى صمته من جديد، قبل أن يلتفت إلى القس سعيد، ويقول: وليغفر لي الرّب، لقد ردّدتَ دائما يا قسّ سعيد قول يسوع عليه السلام: (لا يجتمع الماء والنار في إناء). وهذا صحيح، ولا شكّ فيه، لكن نار الإنجليز اجتمعت مع ماء الحكام العرب، وإذا كانت معجزة كهذه قد تحقّقتْ، في اجتماع ماء ونار عدوَّين معًا، فإن علينا أن نخاف كثيرًا من تلك الرياح القادمة من المستقبل.

* * *

حين بدأوا بالخروج، وجدوا أنفسهم في مواجهة تلك الريح القوية، في تلك البقعة العالية، المفتوحة، فأحسّ بعضهم بأنها الرياح نفسها، التي تحدّث عنها القسّ حنا.

عودة الشبح!

زمن طويل مرّ على سماع كريمة لما دار في لقاء الخميس الأخير، لم تكن متفائلة. كانت تراقب وجوه الناس في الأسابيع التالية، الأشهر التالية، بقلق، منتظرة اللحظة الفاصلة التي لا بدّ ستظهر فيها الحقائق على ملامحهم بوضوح[13].

في بعض الأحيان كانت ترى الأمور أفضل بكثير من التشاؤم الذي سكنها، بل ويخطر ببالها أن التشاؤم لا مكان له في الخارج، إن لم تسمح له أن يتسلل عميقًا إلى الداخل، ولكن حاستها كمصوّرة كانت تقلقها.

- لا يستطيع أحد أن يرى حقيقة ما يدور في داخل الناس أفضل من المصوّر، مع أنه لا يصوّر إلّا مظهرهم الخارجي. قالت لأبيها.

نظر إليها القس سعيد، وبدا مسرورًا من تلك الحكمة التي ولدت من تجارب ابنته.

- ما يحيّرني أن كل محاولاتي لتلوين الصّور، تكون نتيجتها الأبيض والأسود!

تأمل القس سعيد حديقة منزله، كانت الحياة تولد من جديد في نهايات آذار، العشب الطّري، وأزهار الحنّون والأقحوان بدأت تتفتح، وخيّل إليه أن هناك رائحة زعتر.

- لكنك تلوِّنين الصّور، والجميع يعترف لك بأنك نجحتِ إلى حدٍّ بعيد في ذلك.

- المشكلة أنك تعرف ما تحت الألوان، ربما ينخدع بذلك من لم يرَ الصورة من قبل، ولكن حين تكون رأيتها، بل وصوّرتها، فإنك تعرف أن كلَّ ألوانك الجميلة مفضوحة.

- ولكن الناس، كما فهمت منكِ، مأخوذون بصورهم الملونة.

قال ذلك في محاولة منه أن يشير إلى أنه لم يفهم تمامًا ما قالته. لم يكن له غرض غير استدراجها لتتكلّم أكثر.

- صحيح، ربما لأنهم يتمنّون أن تكون لهم صور بريشات الرّسامين، لا أكثر. تعرف يا أبي، كلّ ما أتمناه أن أعيش لزمن تكون فيه الأفلام الملونة والكاميرات قادرة على التقاط الألوان كما هي، دون حاجة لأي تدخّل يدويّ من المصوِّر. هل تعتقد أن ذلك ممكن؟ فهذا وحده ما سينهي أسئلتي هذه.

قبل أن يجيب القس سعيد، سعلتْ كريمة، فأحسّ بصدره ينشقّ.

انتظر قليلا، خائفًا من أن تسعل من جديد. انتبهتْ كريمة:

- يقول المثل الملدوغ يخاف من جرَّة الحبل، ولكن لا تخف، أظنه بعض البرد، أو ربما بسبب استنشاقي المستمرّ لروائح مواد تظهير الصور.

لكن القس سعيد لم يكن مطمئنًا وهو يستعيد صوت سعال زوجته وكريم. أما ما حيره فهو أنه لم يستعدْ سعال كاترينا، السّعال الذي لم يزل مُطبقًا على قلبه شبحًا للموت.

كان القس سعيد بحاجة إلى أن يصدّق كلام كريمة بشأن سعالها، فليس أفضل من أن يكون ذلك صحيحًا.

- في رأيي أن عليكِ الابتعاد قليلا عن حُجرات تظهير الأفلام، مع أنني أعرف أنني أطلب الكثير منك؛ وربما من الأفضل أن تبتعدي قليلا عن العمل. خذي إجازة، اذهبي إلى دمشق، بيروت، أو حتى مصر.

- اطمئن. إذا سمعتني أسعل ثانية، أعدكَ أنني سآخذ بنصيحتك. أما الآن فلنعد إلى موضوعنا.

- أي موضوع؟

- الصّور الملونة. هل تظن أنني سأملك أفلامًا ملونة أو كاميرا تلوّن الصّور، وتريحني مما أقوم به؟

* * *

في أكتوبر 1939، بدأت الصحف تنشر أخبارًا عن فيلم سيغيّر وجه السينما إلى الأبد: (ذهب مع الريح)، وهو مأخوذ عن رواية لكاتبة اسمها مارغريت ميتشل. وبعد فترة قصيرة نشرت الأخبار الأكثر إثارة، سيكون فيلما طويلا، وملوّنًا، وسيبدأ عرضه في منتصف ديسمبر من ذلك العام.

لم يصدّق أحد أن الفيلم سيكون ملونًا؛ إذ كيف يمكن أن يكون المصوّرون نجحوا في ذلك،، فصورة فوتوغرافية ثابتة بحاجة إلى كثير من العمل لتلوينها، فكيف بفيلم متحرّك؟!

تزعزع خيال كريمة، مع أنها سمعت عن أفلام ملوّنة تم إنتاجها قبل ذلك التاريخ.

بدأ الناس ينتظرون الفيلم، لحظة بلحظة، وحين أعلنت سينما الحمراء في يافا، أنها ستعرضه، كانت تذاكر الدخول لمدة شهر، قد نفدت.

لم يكن صعبًا على كريمة الحصول على التذاكر التي تريدها، فأخبرت القس سعيد، وكاترينا وليديا أن يكونوا جاهزين لأجمل رحلة يقومون بها.

القس سعيد، الذي كان حريصًا على ألّا يرفض طلبًا لبناته، وهنَّ، كل ما تبقى له -بعد أن أصبحت إحدى يدي منصور متشبثة بجذع شجرة الحياة، في وقت ظلت فيه الثانية أسيرة قبضة ملاك الموت- وافق، لكن كاترينا رفضت الذهاب، فهي متعبة، ومريضة، وأن تدخل قاعة سينما بمرضها، ستكون كمن يدخل للصالة حاملا رشاشا لإطلاق النار على الموجودين.

كريمة قالت لها إنها تعرف ذلك، وأنها أحضرت لها كمامات خاصة، وبهذا سيكون وجودها بين الناس آمنًا.

لكن كاترينا أصرّت على موقفها، قالت: اذهبوا ولا تفكّروا فيّ، فأنا كما ترون، أتمتّع بصحة لا بأس بها منذ أسابيع، وعلي ألّا أرهقها بأي مشاوير بعيدة.

التفتتْ كريمة إلى والدها، ووجدته صامتًا، ففهمت أنه لا يريد لها أن تذهب، وإلّا لراح يشجّعها على أن تفعل.

* * *

في الطريق إلى يافا، كان سمير أكثرهم فرحًا، فالحديث الذي يدور بين الكبار، كان يَعِدُ بأن ما سيرونه أمر غير عادي. وحين وصلوا، ورأى مئات الناس أمام باب السينما، ينتظرون دوْرهم للدخول، أيقن أن شيئا يندفع كل هؤلاء الكبار لمشاهدته، لا بدّ أن يكون مثيرًا جدًا للصغار.

قبل أن تُطفأ أضواء الصالة، هوى قلب القس سعيد، لقد سمع السّعلة ذاتها. التفتَ، فوجد كريمةَ تبتسم، محاولة منها أن تنفي أن السعلة صدَرتْ عنها.

لكنه كان متأكدًا من أنها هي التي سعلتْ.

كان سمير يجلس بين كريمة وليديا، ولذا لم يتمكّن القس سعيد من أن يحدّد مصدر السّعال بدقّة.

أُطفئت أنوار الصالة، فكتمتْ كريمة سعالًا آخر اندفع شاقًا صدرها.

عند ذلك أيقن الأب سعيد، أن ابنته هي التي تسعل.

ـ قلتُ لكَ لا تقلق، فإذا كنت أسعل بسبب مواد تظهير الأفلام غير الملونة، فكيف لا أسعل في صالة لا شيء فيها سوى فيلم ملون طويل للغاية؟!

لم تكن طُرفتُها قادرة على رسم، حتى، شبح ابتسامة، على شفتيه، ولذا، حين خرجوا من الصالة، اكتشف أنه لم ير الفيلم أبدًا، فقد كان قلبه مشغولا بأمر واحد: سُعال ابنته.

في الطريق، حين سألته ليديا عن رأيه في الفيلم، قال إنه لم يشاهده!

كانت السيارة تشقّ طريقها في ذلك الليل المعتم نحو بيت لحم عائدة.

الغريب في الأمر أن كريمة اكتفت بالصّمت. لقد أخافها تكرارُ سعالها أيضًا. فطلبت من ليديا في المقعد الخلفي أن تفتح نافذة السيارة قليلا، ليدخل الهواء، رغم برودة الجوّ، ليبدّد خطورة السعال،

إذا ما تكرر.

ما إن وصلوا مدينة الرّملة، حتى راحت كريمة تسعل من جديد، وبقوّة أشدّ.

طلب منها القس سعيد أن تتوقّف، فردّت، من الصعب أن نتوقّف هنا، ثم إن الأمر لا يدعو للقلق، وكلّما أسرعنا كان الوضع أفضل.

* * *

أطبقت الهواجس السوداء على قلب القس سعيد، وفي عتمة الكرسي الخلفي كانت ليديا تحتضن سمير برعب، فهي تعرف هذا السُعال، تعرف تاريخه، وقْعه في الصدر، الخوف الذي يزرعه في قلب كل من يسمعه.

أما القس سعيد، فكان يحاول ما استطاع أن يطرد هواجسه، مستعينًا بخبرته مع كاترينا؛ فهي منذ زمن طويل تسعل، ولكنها بخير ما دامت على قيد الحياة! لكنه تذكّر أن امرأته أصيبت بالمرض بعد كاترينا، ورغم ذلك رحلتْ قبلها، ثم إن كاترينا تحوّلت سجينة لمرضها.

حين وصلوا إلى بيت لحم، طلب القس سعيد من كريمة أن تتوقّف وتنزله بجانب الكنيسة.

لم تعترض كريمة. كانت تحسّ أنها بحاجة لصلواته في تلك اللحظات، أكثر من أيّ يوم مضى.

المصوّر الشّبح!

في الثالثة صباحًا، سمع موشيه نوردو طرْقًا قويا على باب بيته، ارتبك، كان بحاجة إلى بعض الوقت لكي يُدرك ما يدور.

اشتدّ الطرق، فطار إلى بندقيته في زاوية الغرفة، ذخّرها، وهمس: مَن؟

كان على ثقة من أنه لن يسمع أي إجابة، لأن مَن في الخارج هم عرب جاؤوا لمهاجمته!

استيقظت زوجته وولداه، ناحوم وهِلْمان.

أرسل لهما أمرًا بالصمت، وهو يشهر سبابته ويلصقها بشفتيه.

تقدّم نحو الباب، بملاصقة الحائط، وهمس ثانية: مَن؟

- أنا ليفي، افتح الباب بسرعة.

لم يكن الصوت غريبًا عنه، فالصّور التي يصورّها ليفي، ما زال يمرّرها، حتى بعد سنوات طوال، كلَّ مرة، إلى موشيه، ليختار منها ما يريد ويرسله إلى العناوين الجديدة التي زوّدوه بها في لندن، فيلينوس، موسكو.. وسواها، منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية.

كان موشيه قد تحوّل إلى وكالة إخبارية مصوّرة، ولم يكن ذلك إلا بفضل المصوِّر الشبح الذي يقوم بعمله: ليفي[14].

- ألم يكن باستطاعتك أن تطرُق الباب بهدوء في مثل هذا الوقت من الليل، لقد أفزعتنا جميعًا. قال له موشيه وهو يبتعد به عن بوابة البيت.

- كانوا سيرسلون إليك شخصا آخر، ولكنني تطوّعت أن آتيك. تعرف السبب.

- من هم؟

- هم يا موشيه، هم، وهل هنالك غيرهم؟ القيادة.

كان الهواء باردًا في الخارج، ولم تزل رائحة شتاء فيه تتسلل إلى شهر نيسان، فتختلط مع روائح العشب، والأزهار، لكن ذلك كله لم يبدّد مخاوفَ موشيه.

ظلّا يسيران حتى وصلا إلى طرف المستعمرة، اختار ليفي صخرة مُطلّة على الوادي وجلس، ففهم موشيه أن عليه أن يجلس.

كان عمود النور جوارهما يحوّل الليل إلى نهار.

- لماذا علينا أن نجلس هنا، ما دمتَ رسول القيادة؟ كان يمكن أن نجلس في البيت.

- ليس من الضروري أن نزعج أسرتك، ثم إن هناك كلامًا ليس من الضروري أن يسمعه أحد.

كان موشيه على وشك أن يسأل: أيّ كلام؟ لكن اليد اليمنى لليفي سبقته، وسحبت صحيفة من الكيس القماشي، فاستطاع موشيه أن يرى الكاميرا، الكاميرا نفسها، خاصته، التي استبدل بها بندقية ليفي قبل سنوات.

- ما الذي يحدث؟ سأل موشيه. لا تقلْ لي إنك قادم في هذا الوقت، بتكليف من القيادة، لتريني صحيفة عربية.

بسط ليفي الجريدة أمام عيني موشيه، وبلا أيّ مقدمات، قال له بحنق شديد:

- لقد هزَمتْني مصورةٌ عربية، أعني هزمتكَ، أعني هزمتْنا.

لم يكن صعبًا على موشيه، الذي ظلت الكاميرا حبّه الأول أن يفهم معنى ما سمع، وقرأ ما كُتِب، موشيه الذي اكتشف موهبة جديدة بعد القنص، هي التحدث بالعربية بطلاقة. كانت الصوّر

واضحة، إنها صوره، صور ليفي التي أرسلها إلى لندن منذ أشهر طويلة، لكنها ليست الصور نفسها، إن هناك بشرا يملأونها!

- إياك أن تكون أخطأت وأرسلت هذه الصور إلى هناك، دون معرفتي؟

- أنت لم تفهمْني يا موشيه، هذه ليست صورنا، هذه صور التقطتْها مصورة عربية..

- مصوّرة؟ وعربية؟!

أجل، مصوّرة وعربية، ونشرتْها لتثبت أن صورنا كاذبة، وأن للبيوت التي صورناها أصحابا عربا، وحولها أناس عرب؛ ويسكنها أناس عرب، أتفهم هذا؟

- وما الذي يخيفك؟ سأل موشيه، وأوضح: في النهاية، هي صوَر منشورة في صحيفة عربية لا يقرؤها سوى العرب[15].

- موشيه، عليك أن تخاف من أي شيء يُنشر، أيًّا كانت اللغة التي ينشر فيها؛ فما دام نُشر، لن تستطيع محوه، ولن تستطيع منع انتقاله، وهناك كثيرون ممن ليسوا معنا، إنجليز، أمريكان، ألمان؛ فالألمان في حيفا وطبرية والقدس، وبعضهم جاء إلى هنا قبلي وقبلك، والحرب مشتعلة هناك، وهم يعرفون أن ما يحدث من حرْق وتدمير لممتلكاتهم هنا، نحن الذين نقوم به، انتقامًا لما يحدث لنا على أيديهم هناك.

- وما الذي عليّ أن أفعله؟ لقد نُشرت الصّور.

- ولكنها ستُلحق ضررًا كبيرًا بي، أعني بكَ، بنا، إنها تُكذّب صوَرنا، وقد تعيد نشرَها صحف أخرى، عن هذه الصحيفة، وسنجد أنفسنا في مأزق كبير، أننا كذبنا.

- ليفي، باختصار، ما الذي تريده القيادة منّي؟ لم تأت في هذا الليل لتبوح لي بمخاوفك فقط.

- صحيح.

- إنني أسمعك.

- لقد استبدلتُ بندقيتي بالكاميرا الخاصة بك، وكنت وفيًّا لهذه الكاميرا وحريصًا على كلّ صورة التقطّتُها، وقد آن الأوان، لكي تكون البندقية التي وضعتُها بين يديك وفيَّة لهذه الكاميرا، الآن، أكثر من أيّ وقت آخر.

- والمطلوب؟

- المطلوب أن تخلّصني منها، أعني تتخلّص منها، أعني أن نتخلص منها، هذه المصورة، إلى الأبد. فلا مجال لأن تكون صورها إلى جانب صورنا، لا هنا، ولا في أيّ مكان في العالم.

- فهمت. أنت تعرف أين تسكن بالتأكيد.

- لقد زوّدتنا القيادة بكل المعلومات اللازمة عنها، وذهبتُ وتأكّدت من كل شيء، على الأرض، بنفسي.

- اطمئن. لن تزعجكَ ثانية، أعني لن تزعجني، أعني لن تزعجنا، قالها موشيه وابتسم كما لو أنه أتمّ مهمته وعاد ليُخبر ليفي بنجاحها.

فجأة عاد الصمت من جديد، سمعوا غناء شحرور، وبدت رائحة الورود أكثر وضوحًا.

- هل تعرف هذه الرائحة، أعني هل تعرف رائحة أيّ وردة نشمّ الآن؟ سأله ليفي وقد اطمأن.

استنشق موشيه حفنة هواء ملأت صدره، وصمتَ قليلا، قبل أن يجيب:

- أهذا امتحان؟ لا، لا أعرف. وأنت هل تعرف؟

- لا أعرف. قال ليفي وهو يضحك.

الامتحانات كلها!

"يرسل الموت رسائله، مرّة تصلنا بسرعة الطائرة، ومرة بسرعة الباخرة، ومرة بسرعة الحمام الزّاجل، ومرة بسرعة الأحصنة. فجأة يختطف من يريد من بين أيدينا، من بين أحضاننا، وعلى مهله يختطف آخرين، وفي الحالين لا نستطيع أن نفعل شيئا..

إنه ينتصر، إذا ما باغتنا، وينتصر إذا ما أرسل لنا إنذارًا بأنه قادم. أحيانا ندرك ما علينا أن نفعله، فنلتجئ إلى حصن الدّواء، وأحيانا إلى حصن الدّعاء الذي لا يبقى لنا سواه، ولكنه أيضًا ينتصر..

ينتصر علينا ونحن في كامل عافيتنا، وينتصر علينا ونحن في مهبِّ عِلَلِنا، أحيانا صغارًا ناصعين كالملائكة، وأحيانا كبارًا، سواء لفحتنا المعصية أو غمرنا الإيمان..

لكن الموت يظل هو الموت، ودائما ينتصر."

كان القس سعيد يهمس لنفسه جوار فِراش كريمة، ولا يعرف إن كان يشكو أم كان يصلي، أم كان يتأمّل، أم كلّ ذلك.

* * *

بسرعة راحت صحةُ كريمة وجسدها ينزلقان نحو المجهول من بين الأيادي المُحبة كلّها، الأيادي المحيطة بها، القابضة عليها.

طلبت من والدها أن يُحضِر لها كل تلك الصور التي التقطتها، للفصول، على مدى سنوات وسنوات، من المكان نفسه، وفي الموعد نفسه، كلّ شهر.

رأت فيها العالم يولَد، ينمو، يكبر، يسقط، يشحب، يموت، ثم يولد من جديد...

كانت قوة سعالها تتضاعف، منذ تلك الليلة، ليلة (ذهب مع الريح)، لكنها لم تذهب فجأة مع الريح، كانت لها فرصة توديع كل شيء، بهدوء. لكن عنوان الفيلم ظل مُلحًّا، وحاضرًا، وهي تبتعد، وتبتعد، وكلّما تحسست نفسها وجدت أن جسدها قد أصبح أصغر، ووالدها قد أصبح أصغر، أمّها، ليديا، كاترينا، نجيب، كريم، منصور، وابنها سمير، قد أصبحوا أصغر، الأحياء والأموات ومن يعيش بينهم، كلهم أصبحوا أصغر.

استندت إلى كتف والدها الذي أصرّ على أن تخرج، لتستنشق هواء جديدًا، غير الهواء الذي فسد في غرفتها. ساعدها في الوصول إلى نهاية مساحة السطح، أمام الدّور الثاني للمنزل، المساحة المطلَّة على الحديقة. وقفت على الحافة بصعوبة، تأمّلت الأزهار، العشب، نوّار اللوز، أشجار الليمون والبرتقال، أشجار الزيتون، وتمنّت أن تكون شجرة، وأن يكون ما يحدث لها مجرد شيء يتكرّر مع الأشجار كلّ عام، ستتساقط أوراقها بعد حين، وتخضرّ بعد أشهر، أشهر قليلة، لا تُذكَر إذا ما قيست بعمر الزمان.

استنشقتْ كثيرًا من الهواء، ولكنها اكتشفتْ أنها لم تكن تحلم إلا بالقليل، فرئتاها مغلقتان منذ زمن، بالغبار الذي تثيره أجنحة ملاك الموت المرفرف قرب سريرها، حولها، تحسّ به، تتشبث بالسرير مرة وبكتفَي والدها مرة، بليديا، بحبّها لوحيدها، بذكرياتها عن الصورة الأولى، الصورة الأخيرة، بفرحها حين رأت صورها منشورة، صورها التي تردُّ بها على تلك الصور الكاذبة، عن مدينة جميلة بلا أصحاب، وغرف رائعة وأسرَّة ومقاعد بلا ضحكات ودموع وآمال وأفراح.

في ذلك الصباح أحستْ أن أحد أجنحة ملاك الموت ملتصق بفمها وأنفها، كخيوط عنكبوت تلتصق بوجهها، تبدأ بإزالتها، فتلتصق بيديها، بحواسّها، الخيوط التي لا تراها.

وحدها رائحة الزّعتر القوية استطاعت الوصول، واختراق كل الحواجز، وما إن أحسّت بها، حتى سألت والدها: هل تشم رائحة زعتر؟

أخذ القس سعيد نفَسًا، وسألها بدوره:

- هل تحسين بها؟! منذ بداية الربيع وأنا أقول لنفسي إنها موجودة، لم أكن أتخيلها إذًا!

- لا، لم تكن تتخيّلها.

- كأنني بدأت أشم روائح كثيرة الآن، كأن رائحة الزعتر فتحت صدري لكلّ الروائح.

فكرة واحدة خطرت ببال القس سعيد، وقرّر أن ينفّذها، فهمس في أذنها: ما دام الزعتر قد فتح صدركِ، فما رأيك أن نلعب لعبتنا القديمة؟

- الذي يعرف الأزهار من رائحتها وهو مغمض عينيه؟

هزت كريمة رأسها ببراءة الطفلة التي كانتها، كأنها لم تبلغ السابعة والأربعين من عمرها.

* * *

في البعيد، كان موشيه، يراقب بيت القس سعيد، من خلف صخرة كبيرة شرق البيت ويهمس لليفي:

- هل أنت متأكّد من أنها هي.

- أعطني المنظار لأتأكد أكثر.

بعد قليل قال: إنها هي، لقد رأيتُ صورتها. لا يمكن إلا أن تكون هي.

في تلك اللحظة، ذخّر موشيه البندقية، ووجّهها بحرفية القناص نحو عِلِّية البيت، لكن أحدًا لم يكن هناك.

- أين ذهبا؟

عاد ليفي وحدّق عبر المنظار، لم يكن هناك أحد فعلا:

- أظننا أضعنا أفضل فرصة لاحت لنا.

- ستظهر ثانية لا بدّ، قال موشيه، ثم إن القرار أتُّخذ، وما دام قرار مثل هذا أُتخذ، فلا طريق لنجاة أحد، فما بالك بنجاة مصوّرة!

* * *

وجود البيت على ذلك الارتفاع، مفتوحًا على الجهات الأربع، وفي مهبّ رياح الفصول كلّها، كان يحوّل حديقته الواسعة إلى سهل صغير تنمو فيها النباتات البرية، التي تحمل الرياح بذورها، فتجد فيه تلك النباتات أفضل مكان لتكاثرها، لميلادها من جديد. كان ذلك يفتن القس سعيد، ويفتن زوّار بيته القادمين كالرياح أيضًا، من جهات الأرض الأربع.

* * *

- ياسمين. قالت كريمة، وهي مغمضة عينيها، والزهرة أمام أنفها.

ضحك القس سعيد، وقال: لنر، كم رائحة ستعرفين من عشر روائح.

- عشر روائح! لا تصعّب الأمر عليّ.

- أنا متأكّد من أنك ستتفوَّقين على نفسك، على نجاحاتك المدهشة حينما كنتِ طفلة.

- قرنفل، أنت تُسهِّل الأمور عليّ، قالت كريمة وضحكت.

- لنجعل الأمر أصعب إذن، اجلسي هنا، وستبدأ الأسئلة الصعبة.

أجلسَها في المقعد المفضّل لها، المقعد الذي كانت تستخدمه للقراءة دائما، المقعد الذي رأت، وهي جالسة عليه، أولى خطوات صغيرها.

انقبض قلبها، رغم أن تلك كانت أجمل لحظات حياتها، بعد لحظة اكتشافها بأن الكاميرا التي أحضرها والدها للبيت، لم تكن لمصوِّر نسيها، بل لها، لها وحدها.

سمعت خطوات أبيها تقترب، لكنها لم تستطع أن تشم رائحة أي نبتة أو زهرة كانت في يده، كان لما يزل بعيدًا، كما أن أسوار الحديقة المرتفعة كانت تحول دون وصول الهواء إليها، ليحمل لها طيف تلك الرائحة.

- شوْمَر، إنها سهلة، ما زلتَ تغشّ.

- بل رائحة أقحوان. قال القس سعيد.

وقبل أن تفتح عينيها، قالت: مستحيل.

رأت الأقحوان في يده الأخرى، فضحكت: أنت تغش أيضًا.

- عجيبة، أنت تقولين لي إنني أغش، سواء كنت أساعدكِ أو لا أساعدك!

- لنُكمل، قالت له.

- بشرط ألا تغشّي أيضا، كما اتفقنا، أغلقي عينيك تمامًا.

مرّت رائحة القرنفل، الصنوبر، النرجس، الزنبق، السوسن، البابونج، دون أن يتوقف ضحكها، وهي تردّد: غَلبتُك، غَلبتُك!

وحين عاد حاملا عِرْق ريحان، وقرّبه من أنفها، كان يعرف أنه سيغشّ هذه المرة، كي تنال علامة كاملة، فمن لا يعرف رائحة الريحان في فلسطين؟ قرَّبه، لم تقل شيئا:

- لا تقولي لي إنك لا تعرفين رائحة النبتة التي في يدَي، إنها الأصعب!

لكن كريمة لم تتحرّك، لم تضحك، لم تقل شيئا، لأن رائحة الريحان لم تبلغ رئتيها..

* * *

حزينة كانت الجنازة من البيت إلى المقبرة، حزينة وطويلة، رغم قِصَر المسافة.

كانت الكاميرا إلى جانب نعشها، كما أوصت:

- أريدها أن ترافقني حتى القبر، ولكن لا أريد لها أن تدفن معي، أريدها أن ترى كل تلك الأشياء التي لن أستطيع رؤيتها فيما بعد، كانت قد همست في أُذن أختها ليديا.

في ذلك الضحى، قررت كاترينا أن تخرج من البيت. وضعت واحدة من الكمامات التي أحضرتها لها كريمة لحضور فيلم (ذهب مع الريح)، وسارت خلف النعش، غير قادرة أن تعرف إن كانت تسير في جنازة أختها، أم في جنازة نفسها.

* * *

في البعيد، كان ظلٌّ يهمس للظلِّ الآخر بجانبه، والنعش في مرمى بندقيّة الظلِّ الأول..

- هل أنت متأكد من أنها هي التي ماتت؟

- كما أراك.

- متأكّد تماما؟

- ولكنني على يقين من أنها خدعتْنا، إنها تخدعنا.

- لماذا تقول شيئا كهذا وقد تأكدتُ من أنها اختفتْ من هذا الوجود؟

- ....

- ....؟

- ......



عام 2016 احتفل محرّك غوغل بذكرى ميلادها

شكر خاص للأعزاء:

القسّ متري الرّاهب، الفنان المصور والباحث: محمد حنّون،

الدكتور جوني منصور

في الملـهاة وجذورها

لَها بالشيء، لهوا: أولع به.

لَهَا، لِـهْيانا عن: إذا سلوتَ عنه وتركت ذكره وإذا غفلت عنه.

ولَـهَت المرأةُ إلى حديث المرأة: أنِست به وأعجبها.

قال تعالى (لاهية قلوبهم) أي متشاغلة عما يُدعَونَ إليه. وقال (وأنت عنه تلهّى) أي تتشاغل.

وتلاهوا: أي لها بعضهم ببعض.

ولهوت به: أحببته.

والإنسان اللاهي إلى الشيء: الذي لا يفارقه. وقال: لاهى الشيء أي داناه وقاربه. ولاهى الغلامُ الفطامَ إذا دنا منه.

واللُّهوْةُ واللُّهْيةُ: العَطِيَّة. وقيل: أفضل العطايا وأجزلها.

(لسان العرب)

إبراهيم نصر الله

مواليد عمّان، من أبويين فلسطينيين أُقتلعا من أرضهما في عام 1948

*** صــدر له شعرًا (الطبعات الأولى):**

. الخيول على مشارف المدينة، 1980. المطر في الداخل،82 19. الحوار
الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق، 1984. نعمان يسترد لونه، 8419. أناشيد
الصباح،84 19. الفتى النهر والجنرال، 1987. عواصف القلب، 1989.
حطب أخضر،1991. فضيحة الثعلب، 9319.
الأعمال الشـعرية- مجلد يضم تسعة دواوين، 1994.
شـرفات الخريف، 9619. كتاب الموت والموتى،1997. بسم الأم والابن،
1999. مـرايا الملائكــة، 2001. حجرة الناي، 2007. لو أنني كنت مايسترو،
2009. أحوال الجنرال -مختارات، 2011. عودة الياسمين إلى أهله سالما-
مختارات،2011. على خيط نور.. هنا بين ليلين، 2012.
طيب مثل قلب سحابة- مختارات، 2017.
الحــبّ شــريرٌ، 2017.

*** الروايــات: (الطبعات الأولى):**

. براري الحُمّى، 1985. الأمواج البرية، 1988. عَوْ، 1990. حارس المدينة
الضائعة، 9819.
الملهاة الفلسطينية (الطبعات الأولى):
. طيور الحذر، 1996. طفل الممحاة، 2000. زيتون الشوارع. 2002،
أعراس آمنة، تحت شمس الضحى، 2004.
زمن الخيول البيضاء، 2007، اللائحة القصيرة لجائزة البوكر العربية، 2009.
قناديل ملك الجليل، 2012.
مجرد 2 فقط، 1992. أرواح كليمنجارو، 2015.
ثــلاثية الأجــراس، 2019:
ظلال المفاتيح، سيرة عين، دبابة تحت شجرة عيد الميلاد.

الشــرفات: (الطبعات الأولى):

. شرفة الهذيان، 2005. شرفة رجل الثلج، .2009 شرفة العار، 2010.
شرفة الهاوية، 2013. شرفة الفردوس، 2015، حرب الكلب الثانية، 2016.

*** كــتب أُخرى (الطبعات الأولى):**

. هزائم المنتصرين- السينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق، 2000.
. ديـواني - شعر أحمد حلمي عبد الباقي. إعداد وتقديم، 2002.
. السيرة الطائرة: أقل من عدوّ، أكثر من صديق، 2006.
. صوَر الوجود ـ السينما تتأمل، 2008.
. كتاب الكتابة: تلك هي الحياة.. ذاك هو اللون، 2018

تُرجم عدد من أعماله الروائية إلى الإنجليزية، الإيطالية، الدنمركية، التركية، الإيرانية، ونشرت قصائد له بالإنجليزية، الإيطالية، الفرنسية، الألمانية، الإسبانية، السويدية...
.أقام أربعة معارض فوتوغرافية، وشارك في معرض (كتّاب يرسمون): فاروق وادي، جمال ناجي، إبراهيم نصر الله- عمان، 1993.

* نال تسع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية، من بينها:
. الجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) 2018،
عن روايته (حرب الكلب الثانية)
. جائزة كتارا للرواية العربية، عن رواية (أرواح كليمنجارو)، 2016
. جائزة القدس للثقافة والإبداع (الدّوْرة الأولى)، 2012، عن مجمل أعماله.
. جائزة سلطان العويس للشعر العربي، 1998.
. جائزة تيسير سبول للرواية، 1994.
. جائزة عرار للشعر، 1991.

Notes

[1←]
بلدة محاذية لمدينة بيت لحم.

[2←]
(في البدايةِ قالت الخيلُ أُريد سهولاً/ قالت النسورُ أريدُ القمم/ قالت الأفاعي أريدُ جحورا/ وظلَّ الإنسانُ حائرا !)

علّقت كريمة بعد سماعها للقصيدة: ولكنني أريدُ النّور.

[3←]
من أبرز رجالاتها: إبراهيم صهيون وهو وطني، وأب للعائلة، ، وكان نائبا لرئيس بلدية حيفا في فترة الانتداب البريطاني. ومن العائلة: يوسف صهيون، الذي كان وزيرا للمواصلات في حكومة عموم فلسطين، وراجي حبيب صهيون وهو إذاعي مرموق، كما كان سكرتيرا لرئيس منظمة التحرير الفلسطينية، أحمد الشقيري، عند تأسيسها، وله كتاب بعنوان (حتى لا ننسى).

[4←]
من أبناء هذه العائلة عزيز ضومط الأديب والكاتب الذي تأثر بالأدب الألماني وكان أول عربي يُرشح لجائزة نوبل للآداب في الثلاثينيات من القرن العشرين.

[5←]
تقام احتفالات موسم النبي موسى قرب مدينة أريحا، وتُنشد فيه الأناشيد والأشعار، وتعزف الموسيقى، وكان في العشرينيات والثلاثينيات فرصة لإعلان الاحتجاج الشعبي على الانتداب والغزوة الصهيونية لفلسطين.

[6←]
تقام احتفالات موسم النبي موسى قرب مدينة أريحا، وتُنشد فيه الأناشيد والأشعار، وتعزف الموسيقى، وكان في العشرينيات والثلاثينيات فرصة لإعلان الاحتجاج الشعبي على الانتداب والغزوة الصهيونية لفلسطين.

[7←]
هذه الصورة، هي صورة غلاف الرواية.

[8←]
ولد محمد جمجوم في مدينة الخليل عام 1902 وتلقى تعليمه فيها. أكمل دراسته في الجامعة الأمريكية، بيروت. ولد فؤاد حجازي في مدينة صفد- شمال فلسطين عام 1904. تلقى دراسته الابتدائية في مدينة صفد ثم الثانوية في الكلية الإسكتلندية، وأتمّ دراسته في الجامعة الأمريكية، بيروت. ولد عطا الزير في مدينة الخليل عام 1895. عمل في عدة مهن يدوية واشتغل في الزراعة. كانت للشهداء الثلاثة مشاركة فعالة في ثورة البراق سنة 1929، ضد الصهاينة. أقرت حكومة الانتداب حكم الإعدام عليهم وتمّ إعدامهم يوم 17- 6- 1930 في سجن

القلعة بمدينة عكا، على الرغم من الاحتجاجات الواسعة. كتب الشاعر الشعبي نوح إبراهيم مرثيّة للمحكومين الثلاثة ما زالت مشهورة لدى الفلسطينيين، وكتب إبراهيم طوقان قصيدته الثلاثاء الحمراء.

[9←]
ثورة فلسطين وعصيانها عام 1936.

[10←]
قصة موشيه نوردو الكاملة في رواية (دبابة تحت شجرة عيد الميلاد).

[11←]
أَسستْ فيما بعد مدرسة بير زيت التي تحوّلت إلى جامعة بير زيت.

[12←]
نشرت الصحف صبيحة يوم 11 تشرين الأول، أكتوبر، 1936 في صدر صفحاتها الأولى نداءات الملكَين عبد العزيز آل سعود وغازي بن فيصل والأمير عبد الله الموجهة إلى الشعب الفلسطيني بواسطة رئيس اللجنة العربية العليا، ونص النداء: (لقد تألمنا كثيرا للحالة السائدة في فلسطين، فنحن بالاتفاق مع إخواننا ملوك العرب والأمير عبد الله ندعوكم للإخلاد إلى السّكينة حقنا للدماء، معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المُعلنة لتحقيق العدل. وثقوا بأننا سنواصل السّعي في سبيل مساعدتكم). وأرفق النداء ببيان اللجنة العربية العليا، بقيادة الحاج أمين الحسيني، وفيه: (.. فاللجنة العربية العليا امتثالا لإرادة أصحاب الجلالة والسّمو، الملوك والأمراء، واعتقادًا منها بعِظَم الفائدة التي تنجم عن توسّطهم ومؤازرتهم، تدعو الشعب العربي الكريم إلى إنهاء الإضراب والاضطراب، إنفاذا لهذه الأوامر السّامية التي ليس لها من هذه إلا مصلحة العرب.)

[13←]
أصدرت جمعية العمال العرب في يافا، التي كانت تربطها علاقة تعاون كبيرة مع الحركة الوطنية، وكانت برئاسة ميشيل متري، الذي كان معتقلا حينها، بيانا قالت فيه: (إن وقف الإضراب لا يعني استسلامنا للقوة العاتية وللجبروت الظالم... وما ندعوكم إلى مزاولة أعمالكم كالعادة، إلا لأن إرادة أصحاب الجلالة ملوكنا مقدّسة.. إننا نعطي اليوم الفرصة للحكومة البريطانية لتعدّل سياساتها الخاطئة... فكونوا مستعدين لتلبية نداء فلسطين العزيزة -ونحن على أبواب المرحلة الثانية-في أي ساعة ندعوكم فيها إلى ذلك...)

[14←]
حكاية ليفي وموشيه الغريبة في رواية (دبابة تحت شجرة عيد الميلاد).

[15←]
لم تجد الصور طريقها للنشر، إلا بعد ثلاثة أعوام من التقاطها، حين رآها الصحفي نجيب نصار، وعرف قصتها.